العائد من الجحيم

العائد من الجحيم

رواية

آدم أحمد سامي

تصميم الغلاف: محمد محسن

تصحيح لغوي : أنس محمد صادق

رقم الإيداع:2002 /2020

I.S.B.N:978- 977-6640-68-9

الطبعة الأولى2020م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

آدم أحمد سامي

العائد من الجحيم

رواية

إهداء...

إلى أمي الحبيبة التي ساندتني و شاركتني النجاح

إلى أبي الغالي الذي يدفعني دائماً إلى الأمام

و إلى أخوتي الذين فرحوا من أجلي

شكر واجب...

إلى الأستاذة الفاضلة مها عمر باوزير لمساندتها المستمرة لي.

و قسم اللغة العربية بمدرستي نور للغات .

الفصل الأول

كل صباح

-"اصحى يا آدم بقى، بقالي ساعة بصحّي فيك، يا آدم يلّا يا ابني أنا تعبت".

هذا صوت أمي الذي يتعالى كل صباح، بنفس الكلمات، أسمعه وهي تنادي أن أستيقظ من نومي الذي أتمادى فيه، تدعونني بكل إصرار أن أستيقظ وأتوضأ وأرتدي ملابسي وأجهز أشيائي المدرسية لأذهب إلى المدرسة بدون مشاكل كل صباح.

سيناريو كل يوم المعتاد: (يا ابني أختك الصغيرة صحيت ولبست قبلك، قوم بقى).

أسمع أمي ولكنني أتقلب في فراشي وأدعك وجهي في الوسادة بكل كسل حتى أتظاهر أنني متعمق في النوم، حتى يتعالى صوت أمي أكثر وأكثر!!!

إنّها متعة عجيبة، أن أجعل أمي تزداد عصبية كل صباح، وعندما تصل للذروة: (حاضر، حاضر بصحى أهو).

ثم أقوم بمنتهى التثاقل المتعمد وأرتدي ملابسي، ثم أذهب إلى الحمام، أغسل وجهي وأسناني وأنا مرتديٌ ملابسي المدرسية التي يصيبها البلل، فتزداد أمي عصبية أكثر وأنا أزداد إثارة وفرحًا!!

أحمل حقيبتي التي رتبتها لي أمي حين أتأكد من وصول حافلة المدرسة،

-"صليت يا ابني قبل ما تنزل؟"

="ربنا يسهل.."

-"يعني صليت؟!"

="مش قلت لك يا ماما ربنا يسهل؟؟"

-"لا حول ولا قوه الا بالله"

وتبدأ أمي في سرد نصائحها المعتادة التي احفظها عن ظهر قلب، والتي لم ولن أنفذها بالطبع!!!

أهز رأسي بحركة ميكانيكية بحتة:

="حاضر، حاضر، فهمت، فيه حاجة تانية؟؟ هركز في المدرسة، ومش هعمل مشاكل، وهاكل سندويتشاتي، ومش هنسى الصلاة، وهاخد بالي من أختي، تمام، تمام فيه حاجة تاني؟؟"

-"لا يا حبيبي ربنا يوفقك، لا إله إلا الله"

="ماشي يا ماما ماشي"

-"يا ابني قول محمد رسول الله"

="ماشي، ماشي"

وأنا أتجه نحو المصعد ممسكًا بيد أختي الصغيرة "رغدة"، أفتح باب المصعد بهدوء وأدخلها أولًا، ثم أدخل أنا حاملًا الحقائب:

(أخيرًا هبعد شوية عن نصائح أمي وتحكماتها).

أقفل باب المصعد وأبعد أختي بذراعي عن مفاتيح المصعد والباب حتى لا يصيبها مكروه، أنظر إلي أختي الصغيرة والمصعد ينزل ببطء، لماذا أحبها هكذا؟ لماذا أشعر بالخوف والغيرة عليها؟ رغدة تمثل لي كل شيء، فهي الوحيدة التي تشعرني برجولتي المأمولة المفقودة، عندما تلجأ لي لألبي طلباتها الصغيرة، هي الوحيدة التي أمثل لها فارسًا

مغوارًا، تنظر لي بكل فخر في كل وقت وحين، هي الوحيدة التي تستند عليَّ فتشعرني بقوتي الواهية، تستشيرني في كل أمورها، فأشعر أنني ذو قيمة، ودائمًا ما تشعرني بالمسؤولية، أختي التي دائمًا ما تذكرني بالخير في جلسات العائلة بدلًا عن حركات أمي المستفزة وكلماتها المعهودة التي تشعرني بالمهانة عندما يذكر اسمي: (آدم؟؟ ربنا يهديه يا رب)، وكأنني بطل العالم في الفسق والفجور.

صوت باب المصعد يوقظني من تفكيري العميق، مشيرًا إلى هبوط المصعد في الدور الأرضي،

(أيوا كدا بقى، عشان أشوف عم هاني أبو كرش ومِس آلاء المشرفة، مش معقولة النهار ده أول يوم في الأسبوع ويكون يوم عادي زي أي يوم)، هكذا أقول لنفسي، أغلق باب المصعد وأتجه إلى الحافلة، أستقل الحافلة بعد أن أسلم أختي لميس آلاء حتى تكون في أيدٍ أمينة، أنظر لعم هاني والمشرفة وأتجه إلى الكرسي الخاص بي في الحافلة،

-"يا أخي طب قول صباح الخير أو السلام عليكم"، جملة أبو كِرش المعتادة.

="ما تشغلش بالك يا عم هاني، آدم على طول كدا"، ردت عليه مس آلاء، وأنا أرد عليهم بابتسامتي المزوجة بامتعاضة خفيفة وأقول في نفسي: (أنتم لسا شفتم حاجة، دا أنا محضر لكم مفاجآت).

أخرج من الحقيبة المدرسية علبة صغيرة جمعت فيها الكثير والكثير من اللبان الممضوغ الممزوج بالصمغ، أحد اختراعاتي العجيبة، وأبدأ في خفة أضعه على بقية المقاعد، وألقي الباقي على أرضية الحافلة، كل هذا وأنا أنظر وأراقب مِس آلاء، المشغولة بالاتصال ببقية الطلاب والنظر إلى ساعتها، وكلما وقفت الحافلة لاستقبال أحد الزملاء، وأراه

يهرول حتى يجلس علي الكرسي المخصص له ويلقي حقيبته بجواره، أضحك وأقول في نفسي "تمام"، الخطة تسير على ما يرام، وسوف ينال بنطال كل زميل وحقيبته نصيبهما من اختراعي العجيب، وعندما تكتمل الحافلة، وتسير في مسارها الأخير إلى المدرسة، وينشغل جميع الزملاء بمراجعة دروسهم في الحافلة أو قراءة القرآن أو النوم، أبدأ في خطتي الجديدة، أنظر إلي زميلي محمد الذي يجلس بجواري، أراه قد ذهب في سبات عميق، وأبدأ في إخراج الورق المقصوص، وأبدأ في بعثرته تحت المقاعد بحركات خفية لا يراها أحد: "يا سلاااام، الخطة خلصت بنجاح".

وعند الوصول للمدرسة، يستعد كل زميل للنزول من الحافلة، وعندما يبدأ بالتحرك للأمام، تتشابك خيوط اختراعي العجيب مع بعضها وكأنها خيوط سبايدر مان، وتبدأ الفوضى تعم الحافلة، وتتعالى أصوات الزملاء: "ايه القرف دا"، "البنطلون باظ واحنا في أول الأسبوع"، "ايه دا يا عم هاني، ليه ما بتنضفش الباص؟؟"

وتُصعق مس آلاء عندما ترى أن الفوضى تعم المكان، والحافلة مليئة بالقاذورات والورق، وتتساءل هي الأخرى في دهشة:

-"هو ايه اللي حصل، هو الباص دا مش كان نظيف؟، جرا ايه يا عم هاني، انت ما نضفتش الباص كويس ولا ايه؟"

="أبدًا يا أستاذة، والله العظيم نضفته الصبح".

وتأتي المشرفة العامة للحافلة لترى ماذا حدث، وسط أصوات الطلاب التي تتعالى أكثر وأكثر، وصوتها يعلو فوق الكل:

"أنا مش هسكت على المهزلة دي، إحنا في أول الأسبوع يا هاني، مش معقولة كدا، كل يوم مشكلة جديدة؟؟"

أنزل من الحافلة بكل ثقة، وكأنني لم أفعل أي شيء، وأستعد للدخول إلى المدرسة، وما زال أبو كرش يردد ويقول: "حسبي الله ونعم الوكيل، والله العظيم نضفته".

الفصل الثاني

يوم دراسي

لقد وصلنا في الوقت المناسب، صوت النشيد الوطني يتعالى ويملئ الأرجاء، الفصول كلها خاوية، والمدرسة نظيفة جدا، أدخل من باب المدرسة الرئيسي، لأبدأ يومي الدراسي، والذي يختلف عن أي يوم دراسي لأي طالب، فأنا يومي مميز، شيق، ومليء بالمغامرات والخطط الشيطانية التي أدبرها من مساء أمس، ولكن بعد أن أطمئن على أختي رغدة، التي أسلمها بنفسي إلى مشرفة رياض الأطفال، فهي أختي وقرة عيني، تسير رغدة مع المشرفة، ومع كل خطوة تخطوها، تلتفت لي وتبتسم ابتسامة ملائكية: "هتوحشني جدا يا آدم، ما تتأخرش عليا في آخر اليوم".

هذا صوت رغدة، الذي يهز وجداني فأبتسم وأودعها بكل عطف وأقول: "مش هتأخر يا حبيبتي عليكِ، خدي بالك من نفسك وهجيلك في البريك".

بعد أن تدخل رغدة الفصل، أستدير بحيث يكون مبنى رياض الأطفال خلفي، وأمامي مباني المدرسة وطرقاتها، هذه هي مملكتي التي سأستحوذ عليها اليوم وكل يوم، وأخضع جميع سكانها تحت سيطرة خططي الجهنمية، سأضرب بنصائح أمي كلها عرض الحائط: "هي ماما قالت لي ايه الصبح عشان أعمل عكسه؟ مش فاكر، هطلق العنان لإبداعاتي الشخصية والتي بالطبع ستكون عكس كل نصائح أمي".

أخرج من مبنى رياض الأطفال متجهًا للممرات الخلفية للمدرسة، حتى أتمكن من الهرب من الطابور الصباحي كالمعتاد، والذي يقف فيه

كل السذج للقيام بحركات بهلوانية ساذجة يطلقون عليها "تمارين الصباح".

أدخل الفصول الخاوية وأتمكن في ظل هذا الهدوء من أن أضع اختراعي العجيب على كل المقاعد وأبعثر ما تبقى من ورقي المقصوص في جميع الأرجاء كما فعلت في الحافلة، ولا تقتصر المغامرة علي هذا الحد، بل تزداد إثارة، أسكب زجاجات المياه على الأرض، وأرمي سندوتشات السذج في القمامة وأبلل جميع كتبهم حتى يشعر هؤلاء الحمقى بالجوع والعطش طوال النهار، أتسلل من الفصول قاصدًا حمامات المدرسة لأسكب جميع زجاجات الصابون على الأرض وأفتح جميع صنابير المياه في وقت واحد، وأهرب وأنا أسمع صوت المياه يعلو ويتدحرج من الأحواض إلى الأرض وكأنها طبول الحرب، ومن ثم تسرب المياه للخارج نتيجة شلالات المياه المتدفقة ونظرًا إلى انسداد البالوعات نتيجة كرات القماش التي القيتها فيها، إنها فكرة رائعة، لماذا لا تتحول طرقات المدرسة إلى أحواض للسباحة حتى نتمتع بها جميعا؟ أخرج متهربًا من هذه المنطقة قاصدًا الفناء الخلفي للمدرسة، وفي خفة منقطعة النظير، أقف في آخر الطابور عندما يبدأ بالتحرك نحو الفصل، يشعر بي كريم زميلي الواقف أمامي في نهاية الطابور، وهو أحد السذج الذين يمتازون بأذنين كبيرتين كأذني الفيل: "صباح الخير يا آدم، انت لسه واصل؟؟"

أنظر له بسخافة وأقول: "وانت مالك يا ابو ودان؟ خليك في حالك"

فينظر كريم أمامه، بعد أن يحمر وجهه خجلًا ويقول: "ربنا يسامحك يا آدم".

وأسمع جرس بداية الحصه الأولى، الدارسات الاجتماعية والأستاذة منال السودة، هذا ما أطلقه عليها لأنها تشبه الليل في سواد بشرتها،

وأبدأ باستخدام النبلة على زملائي وعلى الأستاذة ولا أحد يعلم انه انا!!

وعندما تسألني في فحوى الدرس، أحاول أن أذكرها بطريقة غير مباشرة بحقيقتها السوداء.

"قوم جاوب السؤال ده يا آدم، ما أسباب الحملة الفرنسية على مصر؟؟"

فأقوم وأنا أدعي التفكير وأنظر إلى سقف الفصل وأقول:

="بيتهيألي يا مس للقضاء على كل العبيد في قارى أفريقيا، حتى يتغير اسم القارة من القارة السوداء، إلى القارة البيضاء، مش صح يا مس ولا ايه؟ أصل أنا مش فاكر الحقيقة".

ومن ثم تتوالى أصوات ضحك الزملاء.

-"قصدك ايه يا آدم؟

="مش عارف، بس أنا شايف إن هدف الحملة الفرنسية، كان هدف نبيل في القضاء على سواد القارة".

-"اطلع برا يا آدم، انا فاهمة قصدك كويس"

="شكرًا، هو ايه الليل اللي هجم فجأة دا؟"

وأخرج وأنا مرفوع الرأس، بعد أن فزت بمعركتي مع مس سوداء.

أدخل الفصل عند مغادرة أستاذة سوداء، وأسأل زميلي علي:

="قول لي يا علي يا ابو نص لسان، مين اللي علينا الحصة الجاية؟"

-"ما تقولش عليا كدا يا آدم"

="أومال أقول عليك ايه، وانت بتقول الكلمة في ساعة، ويا ريتك بتقولها صح".

يقف عليَّ والدموع متحجرة في عينيه:

-"بقى كدا يا آدم، تعايرني عشان أنا بطيء في الكلام؟؟

="بصوا يا جماعة، أنا عايز أسأل عليّ سؤال مهم، تحب أسميك علي تهتها، ولا علي أبو نص لسان؟؟" يضحك جميع الزملاء بصوت عالٍ في حين يجلس علي ويبكي، وأنا أقول بصوت عالٍ بعد أن صعدت على مقعده: "بصوا، بصوا، علي تهتها هيعيط أهو يا جماعة، كالعادة"

فيقف أحمد ويقول:

-"ما يصحش كدا يا آدم، أستاذ فوزي على وصول".

="فوزي إن وأخواتها جاي؟"

فيرد أحمد: "عيب يا آدم".

="ما تزعلش يا أحمد، خلاص، أستاذ فوزي مقشة، مش دقنه برضه طويلة زي المقشة؟؟"

يصمت الجميع عندما يدخل أستاذ فوزي إلى الفصل، ويبدأ بالسلام،

="من الدراسات الاجتماعية والأستاذة زنجية للغة العربية وأستاذ مقشة؟ يا قلبي لا تحزن"

وقبل أن يبدأ أستاذ مقشة في الشرح، أرفع يدي وأقول له:

="أستاذ فوزي بعد إذن حضرتك، عايز أشم الهوا برا الفصل"

فينظر لي باندهاش ويقول:

-"مالك يا ابني، انت تعبان؟؟"

="مخنوق بصراحة، ومش قادر أستحمل الفصل"

-"طب اتفضل برا"

ويمضي وقت الحصة الثانية بسرعة وأنا استنشق الهواء الطلق خارج الفصل، وتأتي الحصة الثالثة ومستر عبد السلام سوري، ولا أدخل الفصل من أصله حتى لا أحتك به ولا بكلمة سوري التي يقولها كل ثانية، وبعد قليل، إنها الاستراحة، الوقت الذي يحلو لي لفعل أي شيء، والوقت الذي يذهب فيه المغفلون إلى المكتبة والملعب، يذهبون لقراءة الكتب السخيفة في المكتبة أو يلعبون في الملعب بعض الألعاب الهستيرية من كرة سلة وقدم إلخ... هؤلاء المغفلون الذين يعتقدون أنهم يستفيدون من وقتهم بهذه الطريقة المملة، حقًا مغفلون، حتى إن البعض منهم يذهب لمسجد المدرسة."هي ناقصة تعقيد؟ مش عارف الناس دي عايشة كدا ازاي، من غير أي حرية أو فرفشة؟ يلّا، خليهم في حياتهم وأنا برضه في متعتي وحياتي".

ففي وقت الاستراحة، أبدأ بإفساد كل شيء في المدرسة، ولكن بحذر لأن بعض الطرقات مليئة بالعاملات، أكتب بالقلم على مقاعد الزملاء الكثير من الشتائم مثل: "يا ياسين يا ابو مخ تخين"، أما الحفلة الكبرى، فتكون بالكتابة على السبورة بالخط الكبير:

"خالد محمود القصير، هو انت معانا ولا في kg؟؟"

"أحمد السيد أبو مناخير، خلصت الأكسجين".

"كمال الأقرع، راسك زي الصحراء الشرقية".

قبل انتهاء الاستراحة بقليل أتذكر وعدي لأختي رغدة التي تنتظرني، أنسحب من ميدان المعركة بهدوء بعد أن أتممت كل الخطط المتاحة،

أذهب إلى الكانتين وأشتري جميع أنواع الحلوى التي تحبها أختي، وأذهب إليها وكلي شغف لرؤيتها وكأنها غابت عني دهرًا وعندما تراني قطتي الصغيرة، تجري إليَّ مسرعة وكأنها رأت فارسها المغوار، الذي يحقق لها كل ما تتمناه، أشعر بالفخر وأرفع رأسي إلى عنان السماء حين يرتفع صوتها ويقول: "آدم أخويا الكبير يا مس"

وتبتسم لي مس سارة المسؤولة عن فصل رغدة وتقول لي:

"يا ريت كل واحد يهتم بأخته زيك كده يا آدم، ربنا يخليكم لبعض"

"شكرا يا مس سارة، بعد إذنك".

ألتفت إلى أختي رغدة وأعطي لها كل ما اشتريته من حلوى، فتنظر إليّ بإعجاب وتقبلني وتذهب إلى أصدقائها سعيدة:

"شفتم أخويا آدم جاب لي ايه؟؟"

أبتسم وأشعر بالراحة النفسية وأنا أراها سعيدة ومفتخرة بي وسط زملائها، أترك المكان بسرعة حتى أذهب وأرى أثر مخططاتي الجهنمية.

أدخل مع زملائي المغفلين في نفس الوقت إلى الفصل وكأنني لم أفعل شيئًا، بل وأتفاجأ معهم بكل الفوضى المنتشرة في الفصل، ينظر المغفلون إلى السبورة ويرى كل واحد منهم اسمه الحقيقي وصفته التي يهرب منها، وأنا اراقبهم وعلامات الارتباك والخجل تظهر على وجوههم، ولسان حالهم يقول:

"مين اللي عمل كدا، طب ليه كده؟؟"

ينتهي اليوم الدراسي في تمام الرابعة عصرًا في مساء تغمره الغيوم والأمطار الخفيفة التي جعلت الأرض متسخة خارج المدرسة، ذهبت إلى المكان المخصص لحافلات المدرسة وأنا أغمس حذائي في الطين في كل

خطوة، ونظرت إلى الحافلة التي سنستقلها للعودة من المدرسة ورأيت عم هاني ينظف الحافلة ويلمعها لاستقبالنا وأنا أقول في نفسي: "ما تتعبش نفسك يا ابو كرش، فلقد أحضرت لك أقدامًا تملؤها الأوساخ، لأمحو كل هذه النظافة، وأبعثر مجهودك على الأرض".

أختفي عن الأنظار حتى يجتمع جميع الطلاب أمام باب الحافلة وعندما يبدؤون في الصعود أصعد معهم في وسط الزحمة بأقدامي الطينية، وأجلس على الكرسي المخصص لي وأنظر إلى أرضية الحافلة التي أصبحت لوحة طينية جميلة، فلقد زينت الحافلة.

أرى مس آلاء تمسك بيد رغدة من بعيد متجهةً إلى الحافلة، وتصعد مس آلاء مع رغدة وبقية الأطفال لترى الأوساخ تملأ أرضية الحافلة، وتقول وهي تملأها الحيرة: "ايه ده يا عم هاني، مش تنظف الباص كويس؟ مش معقول كده" وحين يفرغ عم هاني من صلاة العصر التي يصليها بجوار الحافلة، يتجه مسرعًا إلى باب الحافلة وينظر إلى الأوساخ التي تملأ المكان ويقول: "حرام عليكم يا أولاد، أنا صحتى تعبت من كده".

فترد مس آلاء: "هو انت نضفته أصلًا، يلّا بسرعة نضفه قبل ما تسوق"

ويصعد أبو كرش إلى الحافلة لينظفها للمرة الثالثة، ممسكًا بظهره متمتمًا: "لا حول ولا قوة إلا بالله"

الفصل الثالث

البيت من جديد

وشقت الحافلة طريق العودة، بعد يوم حافل بالمغامرات والخطط، وأنظر إلى كل زملائي الذين أنهكهم التعب والإرهاق، وأسند رأسي على زجاج نافذة الحافلة، بعد أن تملّك مني التعب أنا أيضا، فكلانا أنهكه التعب ولكن بطريقته الخاصة!!

وكلما اقتربت الحافلة من المنزل، أشعر باختناق شديد واضطراب، وتتزايد أنفاسي، حتى تقف الحافلة أمام المنزل، وبخطوات متثاقلة أخرج من الحافلة ممسكًا بيد أختي الصغيرة لأدخل إلى بهو العمارة، وأشعر وكأنني دخلت بوتقة ضيقة تحبس أنفاسي وتضيق أكثر وأكثر.

إنه البيت من جديد، فسأرجع مجددًا للمدينة الفاضلة والنصائح والواجبات المنزلية والمدرسية، لا لن أجعله كذلك، فهو مملكتي أيضًا، والتي سأخضع كل من فيها على اتباع أوامري!!

تفتح أمي الباب وتستقبلني أنا وأختي رغدة بابتسامتها المعتادة، وتبدأ حديثها معي:

-"آدم، جعان يا حبيبي؟ طب ممكن تغير هدومك وتتوضأ وتصلي لحد ما أحضر الغدا؟؟ وانتي يا رغدة عملتي ايه في المدرسة النهار دا؟؟"

تحضن أمي بشدة وتقول:

-"كان يوم جميل، علشان آدم أخويا جابلي شوكولاتة في البريك".

لم تتذكر رغدة من يومها الدراسي غيري أنا، أبتسم لرغدة وأنظر لها بكل حب وهي تبادلني نفس الشعور، لتفسد أمي هذه اللحظة بصوتها الذي يخترق هدوء وجمال اللحظة:

-"يلّا، أنتم لسا واقفين؟"

="غيّري بقى، كل يوم نفس الكلام بنفس الصوت في نفس الوقت؟!"

ولولا أن بطني تتأوه من كثرة الجوع، لكنت عاندت مع أمي وامتنعت عن الطعام!!

أجلس على المنضدة وطبعا لم أغسل يدي، ولم أبدل ملابسي ولم أتوضأ ولم أصلِّ، حتى تصل أمي وتقول:

-"ليه يا ابني ما غيرتش هدومك؟ طب اغسل إيدك قبل الأكل طيب"

="مش هغسل إيدي، هو حلو كدا"

تنظر لي أمي قليلًا وتهز رأسها بحيرة وتقول:

-"لا حول ولا قوة إلا بالله"

أبدأ بالتذمر من الطعام بالرغم من أنه لذيذ جدًا،

-"ايه؟؟ مش عاجبك الأكل يا آدم؟ دي رغدة أكلت كل طبقها"

="اه يعني، مش بطال، بس كنت عايز بطاطس مش ملوخية، وفراخ مش لحمة"

-"حاضر، بكرة هعمل لك كل اللي انت عايزه، المهم دلوقتي إنك تكمل كل أكلك، علشان تقوم تصلي بعد الاكل"

وأرد على أمي بمنتهى البرود: "ماشي، ماشي".

تبدأ أمي بحمل الأطباق من أمامنا إلى المطبخ، وأجد أختي الصغيرة رغدة تحمل طبقًا صغيرًا لتساعد أمي،

-"ممكن تساعدنا يا آدم؟"

="لا، معلش عشان أقوم أصلي"

أذهب إلى الحمام وأفتح صنبور المياه وأغسل يدي ولكنني لا أتوضأ، وبعد ذلك أدخل غرفتي، إنها مملكتي وغرفة عملياتي، من هنا تخرج كل أفكاري وأكتب سيناريوهات كل خططي الجهنمية، هنا أشعر أنني ملك وكل الرعية تنتظر أوامري، من هنا أحدد مصائر الناس وأرسم طرقهم.

غرفة آدم، إنها غرفة واسعة ذات جدران بيضاء، لا ترى من كثرة الصور المعلقة عليها، هذه صورة جيفارا علقها آدم بعد أن رآها على تيشيرت أحد زملائه، ولا يعرف عنه شيئًا، وصورة أخرى لنيلسون مانديلا وأخرى لغاندي ومايكل لوثر كينج وهو لا يعرف عنهم شيئًا إلا أسمائهم، وصور أخرى لمايكل جاكسون وجاستن بيبر، وجدار كامل لجميع نجوم كرة القدم، المحليين والعالميين، وصور لجميع موديلات السيارات.

أما الأرض، فهي مليئة بالملابس والكتب والمجلات في جوانب الغرفة، ويوجد على منضدة صغيرة في أحد جوانب الغرفة سلسلة بها صليب كبير معلق على حامل، وبجوارها مصحف!! الشنطة المدرسية على السرير، ويوجد على مكتبه لاب توب وبجواره هاتفه المحمول، وأباجوره تلقي بنورها على المكتب.

إنها غرفة لا تستطيع تحديد هوية صاحبها، هل هو بطل أم رياضي أم ثائر أم شخصية تافهة ليست لها ميول محددة، إنها شخصية فوضوية، فارغة، تمتلك طاقة كبيرة، لا تستطيع الاستفادة منها، دائمًا

ما توجه مجهودها وتركيزها في الطريق الخاطئ، حال آدم كحال الكثير من أبناء جيله، الذين يفتقدون أساس الهوية وأبجدية الانتماء، لا يشعر بالولاء لأي فكرة أو شخص أو حتى دين!!

يغلق آدم باب غرفته عليه ويتجه مباشرة إلى النافذة التي تطل على شقة الأستاذ كمال، جاره في العمارة المجاورة، وبالتحديد تطل على غرفة مريم، ابنة الأستاذ كمال، مريم التي تصغر آدم بعام واحد ويبدأ آدم بالتلصص واختلاس النظرات من وراء ستائر النافذة على مريم التي تسقي بعض النباتات التي تعتني بها وتعلقها على شرفتها، يختفي آدم وراء الستائر حتى لا يشعر به أحد وعيناه مثبتتان على مريم، ويبدأ في التخلص من الزي المدرسي قطعة قطعة ويلقيهم على الأرض حتى تنادي أم مريم عليها:

-"يلّا يا مريم علشان تصلي".

ويبدأ آدم في التقاط ملابسه المنزلية ويلبسها، وما زالت عيناه مثبتتان على مريم التي تغطي شعرها بطرحة طويلة لتبدأ بالصلاة.

يُعدِّل آدم من وقفته ليتمكن من رؤية جميع أنحاء غرفة مريم وتفاصيلها، وفي قمة انشغاله بالتجسس على جيرانه، يسمع دقات على باب غرفته، توقظه من تركيزه العميق، ومحاولة لفتح الباب الموصد:

-"آدم انت بتذاكر ولا بتعمل ايه؟"

="سمع الله لمن حمده، الله أكبر"

-"ربنا يكرمك يا آدم، أنا رايحة أنا ورغدة عند خالتك عائشة عشان تعبانة، بعد ما تصلي ذاكر، ولو عايز حاجة اتصل عليّا، مش هنتأخر إن شاء الله".

وصوتي يتعالى:

="الله أكبر، الله أكبر"

وتنصرف أمي وأختي بعد أن اعتقدت المسكينة أني أصلي وأنني سأذاكر.

انصرفت أمي وهي تعلم جيدًا أنني لا أحب زيارة خالتي المريضة، على الرغم من أن أمي دائمًا ما تقول إن في الزيارة ثواب كبير، وإن زيارة المريض واجبة.

وأخيرًا أصبحت بكامل حريتي، فلقد اتسعت مملكتي من الغرفة إلى البيت بأكمله.

والآن أبدأ الحفلة التي سيشاركني فيها جميع الجيران رغمًا عنهم!! فجميع الأغاني والموسيقى ستتعالى نغماتها من خلال مكبرات الصوت الخاصة بي، إن الصوت يتعالى والجيران يبدأون بفتح النوافذ لتتبع الصوت ومعرفة مصدره وأنا أتابع وأراقب جميع التحركات من وراء النافذة، فها هو الأستاذ كمال يصيح: "يا جماعه ما ينفعش كده، فيه ناس بتذاكر". ويعقب الأستاذ بيومي: "ايه الصداع دا يا أستاذ كمال، هو الصوت دا جاي منين؟"، "مفيش احترام للكبير ولا للمريض، لازم نعمل حاجه". هذا الصوت يبدو مألوفًا لي، إنها الأستاذة فاطمة من الدور الثالث، وأنا أعلم جيدًا سبب غضبها العارم، إنها ترعى أباها المسن الذي يزعجه الصوت العالي، ولكني لا أبالي، فهؤلاء الجيران دائما ما ينظرون إليَّ بنظرات سخيفة ودائما ما يبدأون بالشكوى لأمي، ولذا فقد حانت ساعة الانتقام، سأنتقم منكم جميعا وأستمتع أنا بحفلتي الصغيرة.

أسمع الجميع يتفقون على الشكوى الجماعية لأمي بعد أن تأكدوا من أنني مصدر الإزعاج والضوضاء، تستمر الحفلة لمدة ساعة كاملة، وخلال هذه الفترة يدق باب الشقة عدة مرات، وأنا لا أبالي لأن هؤلاء

المساكين يحاولون إخفاض الصوت بأي طريقة، وأجد هاتفي المحمول يرن، إنها أمي!

="نعم؟؟"

-"آدم، الجيران كلهم بيشتكوا إن فيه صوت عالي طالع من الشقة!!"

="مفيش صوت ولا حاجة"

-"انت متأكد يا ابني، أصل هيعملوا محضر إزعاج في القسم"

="اه متأكد، سلام بقى دلوقتي".

أذهب إلى مكبرات الصوت لتعلية الصوت أكثر بعد أن أخفضته أثناء مكالمة أمي، "محضر إزعاج في القسم؟! طيب يبقي إزعاج بجد بقي!!".

بعد أن فقد المساكين الأمل في إخفاض الصوت، يبدأ كل منهم بغلق النوافذ غلقًا محكمًا حتى لا يتسرب منه صوت الموسيقي!!

تنتهي حفلتي بعد أن دامت ساعة كاملة في غضون الليل!!!

الفصل الرابع

الليل والحوت الأزرق

عادت أمي إلى البيت قبل منتصف الليل بساعة، عادت إلى البيت الهادئ، المليء بالسكينة والنموذجية!! عادت أمي لتجدني أذاكر! أجلس على مكتبي متظاهرًا بالإرهاق من كثرة المذاكرة:

-"السلام عليكم يا آدم، انت لسه بتذاكر يا حبيبي؟؟"

="اه، بذاكر"

-"أوعى تكون نسيت الصلاة يا آدم!!"

="لا ما نسيتش"

-"طب انا داخلة أنام أنا ورغدة، عايز حاجة؟؟"

="لا، مش عاوز حاجة"

-"ربنا يهديك يا آدم ويوفقك"

أفتح باب غرفتي حتى أرى رغدة، فقد كان كل حوار أمي من وراء الباب!! أفتح الباب لأجد رغدة تمسك بيد أمي وعندما تراني، ترتسم الفرحة على وجهها، وتبتهج وتحضنني وتقول لي: "تصبح على خير يا آدم، انت أحسن أخ في الدنيا، وانا دايمًا فخورة بيك".

تسحب أمي رغدة وتعقب: "بس الأول ربنا يهديه، علشان تبقي فخورة بيه".

أقف متجمدًا للحظة، عيناي تجوب أنحاء البيت، حتى تقع عيناي على صورة أبي، رحمه الله، أنظر إليه وأقول: "رحمك الله يا أبي، لو كنت موجود دلوقتي، ما كانتش أمي تستفزني هكذا كل يوم".

هل كان أبي ليقبل هذا؟ عجبًا لكِ يا أمي، لا تقبلين أن يكون ابنك أيقونة في حياة أخته؟ أم أنني حقًا لا أستحق، لم يدم حديثي مع صورة أبي طويلًا فأنا دائمًا لا أجد الرد، ولكن ما الفائدة؟ سأظل أنا وأمي على هذا الحال، وسيظل حب رغدة لي وحبي لرغدة مستمرًا مهما حدث.

دقت الساعة الثانية عشر منتصف الليل، فأتجه إلى غرفتي، ما هذا الشعور السخيف والملل، لابد من كسر هذا الملل، أنا من عشاق ألعاب الرعب، وخاصةً عندما ألعبها في الليل، لقد استنفذت كل الألعاب وأصبحت بالنسبة لي قديمة، ولكني سمعت عن لعبة الحوت الأزرق؟ وما بها من إثارة وتشويق، ولهذا قررت أن تكون هذه الليلة ليلة الحوت الأزرق، ولقد بدأت بالفعل في تحميل هذه اللعبة وبتنفيذ المهمة الأولى، فسحبت درج مكتبي لأبحث عن آلة حادة لرسم الحوت الأزرق على كتفي، لكيلا تراها أمي في الصباح، وصورت كتفي المرسوم عليه الحوت، وأرسلتها للمسئول، إن الفضول يقتلني، ما هي المراحل القادمة لأنفذها عن ظهر قلب.

إن هذه اللعبة وما يشبهها من الألعاب تناسب حياتي الفارغة المملوءة بالملل، لماذا يقولون عن هذه الألعاب إنها خطيرة ومميتة، بالعكس فأنا أراها تملأ فراغ حياتي وتبعدني قليلًا عن المدينة الفاضلة التي تريد أمي أن أعيش فيها، وإن كانت هذه الألعاب بها خطر، فلابد للخطر أن يخاف مني، فبدأت أجرب جميع الألعاب المماثلة، فوجدت مريم وجيراني وغيرهم الكثير، ولقد تنقلت عبر مواقع التواصل

الاجتماعي لتمرير الوقت، ولقد أنشأت بعض الحسابات بأسماء مستعارة لبنات وأولاد، لأتمكن من الدخول في المجموعات الخاصة بالبنات لأعرف اسرارهن، ولأتمكن من الحديث مع الكثير من البنات وكأنني بنت مثلهن، ما أسهل خداع هؤلاء المغفلين المساكين، فهم لا يعرفون ماذا يحدث خلف الكواليس، لقد أرهقت فعلًا في هذه الليلة، فجميع أصوات وأحداث وصور الألعاب تجول بخاطري، وأحسست برعشة في جسمي كله، وعيناي لا تستطيع فتح جفونها، وأصبحت رأسي ثقيلة حتى إنني نمت على مكتبي، أخذني النعاس بشدة، ولكن الألعاب ذهبت معي، فبالرغم من أنني نائم، إلا أن صور وموسيقى وأحداث هذه الألعاب أمام عيني وفي أذني، لا أستطيع الهروب منها حتى بالنوم، أشعر بالتعب الشديد وأنا نائم، ولا أستطيع رفع رأسي وأنا نائم، حتى أسمع أذان الفجر وأنا نائم، وأسمع صوت المؤذن يؤذن لأقامة الصلاة انتبه لصوت دقات أمي على الباب وهي تقول: "اصحى يا آدم عشان تصلي معايا الفجر"، فوقفت وتوجهت لفتح باب غرفتي وذهبت بمنتهى الكسل إلى الحمام لقضاء حاجتي ولم أتوضأ، خرجت من الحمام لأجد أمي بعد أن انتهت من صلاتها، -"اتوضيت يا آدم؟؟"

="اه"

-"طب صلي يا ابني ربنا يبارك فيك ويوفقك"

="طيب".

وأدخل غرفتي وأتجه إلى سريري مباشرة وأشد الغطاء عليّ وأسمع صوت أمي من وراء الباب:

-"انت بتصلي يا آدم؟؟ آدم؟"

فيتعالى صوتي وأنا أقول: "سمع الله لمن حمده"

وأغطي رأسي بالوسادة لأنام.

وذهبت في سبات عميق حتى إنني لم أسمع صوت أمي من جديد.

وتستمر الأيام هكذا، يوم بعد يوم وكل ليلة أبحث عن لعبة جديدة، وأنفذ أمرًا جديدًا من أوامرها.

أصبحت هذه الألعاب جزءًا من حياتي، بل حياتي كلها، إنها ملاذي الوحيد لقضاء الليل، في صحبة الغموض والخوف اللذيذ، إنها عالمي الفريد.

تتوالى الأيام والليالي ليلة تلو الأخرى، حتى يأتي "الويك إيند".

الفصل الخامس

ويك إيند

-"هنتقابل النهار دا في النادي يا آدم؟ النهار دا الخميس (الويك إيند)، إيه رأيك؟"

هذا كلام أشرف صديقي الذي يساندني في جميع مقترحاتي، أشرف يكبرني في السن وجاري أيضًا، شخصيته تشبه شخصيتي كثيرًا، ولذلك فأنا دائمًا أحاول عدم البعد عنه وأن تكون علاقتنا على ما يرام باستمرار، فهو (البودي جارد) الخاص بي، والذي أحتاجه أحيانًا للدفاع الجسدي عني.

-"لا وخد بالك يا آدم دا الويك إيند اللي قبل (الكريسماس) يعني لازم نولعها يا معلم"

هذا عمر صديقي في نفس الشلة، عمر عبقري نت، هو الذي ينشئ لنا أكثر من أكونت بأسماء مستعارة على الإنستغرام وهو مبتكر كل مصائبنا على الفيسبوك وتويتر، عمر لا أستطيع الاستغناء عنه، فهو بئر أسراري ومفجر طاقاتي الإلكترونية.

="تمام يا جماعة اتفقنا، الساعة ٥"

-"تمام يا صاحبي"

="تمام يا معلم"

لا تتعجب من طريقة آدم في الحديث مع أصدقائه فهي لغة العصر ولابد له أن يواكب هذه اللغة والموضة، فلا تتعجب عندما يشتم

بعضهم البعض بأفظع الشتائم على سبيل الهزار والمرح، ولا تتعجب أيضًا عندما يفضح بعضهم البعض حتى يتبادلوا (قصف الجبهات) حتى لو أدي إلى مشاجرة بينهم أحيانًا، فالذي يقهر الآخر ويخضعه بالقول هو الفائز في قصف الجبهة، غير مبالي بمشاعر الآخرين وتعاليم ديننا، كل هذا جزء من حياتهم كشباب وهم يستمتعون جدًا بهذا، بصرف النظر عن تعجب الآخرين أو اشمئزازهم منهم.

بدون أدني مقدمات وفي إجراء خارج عن نطاق الروتين اليومي المعتاد، أرجع من المدرسة وأرتدي ملابسي المناسبة للنادي:

="عايز فلوس"

-"رايح فين يا آدم؟"

="خارج"

-"فين يا ابني"

="رايح النادي، ممكن فلوس بقى؟"

-"خد يا ابني، يكفيك دول؟"

="اه"

-"خد بالك من نفسك، آدم...!

أخذت من أمي النقود وأسرعت بفتح باب الشقة والوقوف أمام باب المصعد بسرعة قبل أن تكمل أمي كلامها المعتاد والعظات المملة، أردت أن أضع يدي فوق أذني حتى لا أسمع كلام الشيخة ماما!! ولكني وجدت طريقة أسهل، وضعت الهيد فون في أذني لأسمع الموسيقي حتى وصول المصعد،

فتحت باب المصعد ودخلت وحين نظرت لأمي وأنا بداخل المصعد وبابه يغلق تدريجيًا وجدتها جاحظة العينين تضرب كفًّا بكف وتهز رأسها بتعجب وحيرة.

لا يهم، فأمي هكذا دائما، لا أعجبها بأي شكل من الأشكال، حتى لو فعلت ما تريده!

وصلت للنادي في الوقت المتفق عليه وقابلت أشرف وعمر أصدقائي ورفقاء كفاحي، وجاء طارق الأخ الأكبر لعمر معهم، وأصبحنا أربعة، قوة لا يستهان بها،

طارق: "أهلا أهلا بالشباب، أكيد هيكون يوم عسل".

أشرف: "فين البنات عشان يبقى عسل بجد؟"

عمر: "من أولها كدا؟ براحة شوية علي آدم، دي أول تجربة ليه"

فأسرعت بالرد حتى لا أظهر أنني مبتدئ:

"ايه يا عم، دا انا واد مجرب وخلاصة"

وحينها مرت أمامنا مجموعة من البنات،

طارق: "أيوا كدا، حاجة لذيذة نبدأ بيها اليوم"

وهو يحدق فيهن.

طارق أخو عمر يعتبر أستاذنا الذي نتعلم منه فن الحياة وفن إدارة المواقف الصعبة.

="يلّا يا مايسترو، نروح ونعمل أحلي أكشن"

أقولها وأنا أنظر لطارق وكأنه الأب الروحي لي، نصل عند الفتيات ويقذف طارق كرة صغيرة حتى تصطدم بهن، تتعثر إحداهن والأخرى تنظر له وتقول: "فيه إيه؟ انت مش شايفنا واقفين؟؟"

فنضحك جميعًا عليهن وتحمر وجوههن ويبتعدن عنا، ولكننا نذهب ورائهم وكل واحد منا يلقي كلمة:

"القمر ليه زعلان؟؟"

"طب ممكن رقم الهاتف؟؟"

"طب نشرب عصير"

ترد إحداهن وتقول:

"عيب كدا، انتوا معندكوش اخوات بنات؟؟ انتوا ليه بتعاكسونا؟؟"

فيرد طارق ويقول:

-"اه عندنا، بس مش حلوين كدا"

-"لا، دا احنا نجيبلكوا الأمن أحسن"

فيرد أشرف ساخرًا:

-"أمن، أمن ايه؟ دا لو جه الأمن هنقول إن انتوا اللي بتعاكسونا، احنا ناس واقفين في حالنا، بتكلمونا ليه؟"

فيبتعدن وهن في غاية الدهشة من رد أشرف، ولا يلتفتن لنا مجددًا، ونقرر المحاولة مع أخريات، حتى استجابت واحدة لطارق من مجموعة أخرى ووقفت معه وتبادلا أرقام الهاتفات، إنها خبرة طارق الجبارة في إدارة المواقف.

اقترح طارق تكملة بقية الويك إيند خارج النادي، فوافقنا وذهبنا إلى مكان أشبه بالمقهى، فرأيت دخانًا يتصاعد من هذا المكان، ورأيت أناسًا كثيرين في هذا المكان المغلق البعيد، ما هذا المكان؟ أيمكن أن يكون قهوة عادية، لكنه مغلق ولا يشبه المقاهي، هناك شباب كثيرون

أسمع صوت سعالهم، ويخرجون لشم الهواء ويدخلون ثانية، وأرى شيشة وسجائر تملأ المكان أكثر من المشروبات، ولقد أحسست أن هذا المكان مخصص لشرب السجائر والشيشة فقط وليس كالمقاهي العادية.

مد طارق يده لي بسيجارة- إنها سجائر لها رائحة وشكل مميز-: "ألف مسا على أحلى شباب"

هكذا كان يقول لنا طارق عندما يمد يده لنا بالسجائر، إنه يريد أن نسلك طريقه ومؤكد سوف نصل إلى مستواه في يوم من الأيام، كانت أول مرة لي في التدخين، فلذا لم أدخن من هذه السيجارة كثيرًا لأنها كانت ثقيلة جدًا علي، وكنت أشعر أنني سأموت من كثرة السعال، وكأن حجرًا كبيرًا وضع على صدري ولكنني لم أظهر لهم ما أشعر به حتى لا يسخروا مني، فأنا كبير ومتحمل المسؤلية،

-"ليلة الكريسماس بعد بكرة، هتعملوا ايه يا شباب؟"

عمر: "اقترح انت يا طارق"

أشرف: "هو فيه رأي بعد رأيك؟"

نظرت إلى طارق بكل إعجاب وقلت:

= "أكيد محضر لنا مفاجأة كبيرة يا مايسترو"

- "طبعا، محضر لكم حاجة هتنقلكم لدنيا تانية خالص، دماغ عالية أوي، بالصوت والصورة فلم جامد وكام سيجارة متعمرة"

كلنا في صوت واحد: "تمام يا معلم قشطة".

وجاءت الليلة الموعودة، ليلة الكريسماس المباح فيها كل شيء، ذهبنا إلى منزل طارق وكان أبواه خارج المنزل في سهرة في منزل العائلة

الكبير للاحتفال بالكريسماس، وقد أحضر طارق كل شيء، الفيلم الإباحي والحبوب المخدرة التي يسميها حبوب الحياة مع بعض السجائر الصاروخية وبعض زجاجات الكحول، إنها فرصتي لعبور الحدود وللتعرف على جانب آخر من الحياة الحقيقية التي تغيب عني، إنها أول مرة لي، ولن تكون الأخيرة، إنها البداية لعهد جديد من مغامرات آدم.

كانت الغرفة مظلمة، تلك التي أعدها طارق للاحتفال، فوجئت بالكثير من أصحاب طارق الذين يكبرونني في السن، فهم في نفس سن طارق المايسترو، ويبدو أنها ليست المرة الأولى لهم، بدأ الفيلم وبدأت الحفلة، وبدأ الدخان في التصاعد من أفواهنا وأجسادنا أيضًا، وفوجئت بالجميع يشربون الكحوليات وبعضهم ينظر لي وكأنني شيء غريب، ويقول لطارق:

- "ايه ده؟ مبتدئ؟"

فينظر لي طارق ويضع يده على كتفي ويهزني بثقة ويقول:

-"لا طبعا، دا راجل وسيد الرجالة، دا هيبقى المايسترو في يوم من الأيام"

فازدادت ثقتي في طارق وفي نفسي.

إن طارق يشبه رغدة كثيرًا بالنسبة لي، الاثنان يمدونني بالطاقة الإيجابية، حاولت الاندماج معهم قليلًا حتى لا ينعتوني بالمبتدئ وحتى لا أخيب ظن طارق بي، وعندما رأيت بعضهم يترنح من كثرة السجائر الغريبة والمشروبات بدأ ينتابني شعور غريب لا أعلم ما هو، هذا الشعور دفعني -ولأول مرة- أن أرد على مكالمات أمي المتكررة، فعندما نظرت إلى الهاتف وجدت خمس مكالمات فائتة من أمي، وفي أغلب الأحيان كان يصل عددها إلى عشرين مكالمة، وأنا لا أرد بل كنت أستمتع بالنظر إلى الهاتف ولا أرد، أما الآن فلا أعلم ما الذي اعتراني،

إنه الخوف يملأني، لابد أن أقاومه، فبعد أن أمسكت الهاتف للرد على أمي، وضعت الهاتف على المنضدة مجددًا ونظرت إلى طارق الذي يقول لي:

- "آدم انت فين؟؟ في لقطة حلوة أوي، هيفوتك كتير"

= "حاضر يا مايسترو، انا جاي أهو"

فنظرت نظرة أخيرة إلى الهاتف الذي لم يهدأ من الاهتزاز بسبب مكالمات أمي.

الفصل السادس

طارق

انتهت ليلتنا الساعة الثالثة صباح اليوم الأول من العام الجديد، ذهبت إلى منزلي وأنا أترنح، فتحت باب الشقة بهدوء بمفتاح خاص بي ودخلت متسللًا لأجد أمي تنام على أريكة صغيرة في أحد جوانب الصالة وبالرغم من هدوئي الشديد وتسللي إلا ان أمي انتفضت عند دخولي:

-"كنت فين كل دا يا آدم؟"

="مش طالبة كلام كتير، أنا داخل أنام"

-"أنا تعبت والله منك مش معقول كده"

وتتجه نحو باب غرفتها وتغلقه بقوة!

أتوجه إلى غرفتي وأشعر وكأن شخصًا ما يقف خلفي ويهز كتفي، استدرت بخوف لأرى أبي، صورة أبي تنظر لي وكأنها حية:

-"كده برضه يا آدم؟ وانا اللي كنت فاكرك هتبقى راجل البيت بعد موتي".

="هو انا عملت ايه غريب عن أي حد في سني؟"

-"انا سايب أمك ورغدة أمانة في رقبتك علشان تحميهم بدالي"

="رغدة في عينيا، أما ماما مش قادرة تفهمني، حاسس إن فيه فجوة كبيرة بيني وبينها، دايمًا فيه حاجز بين أفكارها وأفكاري، فما

تلومنيش أرجوك يا بابا، يمكن لو كنت موجود معانا كان الوضع اتغير."

أدخل غرفتي وأرتمي على السرير بملابسي ولا أستطيع من تعبي وإرهاقي أن أغلق باب الغرفة ورائي.

أستيقظ صباحًا على صوت أمي وهي تقول لأختي رغدة: "روحي صحي آدم، اكيد مش هيعرف يصحى، دا راجع امبارح بليل وش الصبح".

أشعر بيد أختي الصغيرة رغدة الحنونة وهي تلعب في شعري وتقول لي:

-"اصحى بقى يا آدم". وأرد بتثاقل:

="مش قادر أقوم يا رغدة دماغي ثقيلة جدًا وجسمي حاسس انه متكسر"

-"يعني هروح المدرسة لوحدي يا آدم؟"

="اه، لأن انا مش قادر أروح"

-"خلاص أنا كمان مش هروح"

أنهض قليلًا وأعتدل في جِلستي وأنظر لرغدة بجدية وأقول لها:

="علشان خطري روحي انت المدرسة واستفيدي بيومك"

لا أستطيع مقاومة النوم، فألقي برأسي على الوسادة وأنا اقول في نفسي: "رغدة أمانة في رقبتي!!".

لقد غبت عن الوعي من شدة تعبي وإرهاقي، وتأثير كل ما فعلته بالأمس ظهر عليَّ الآن.

استيقظت من نومي على صوت جرس تليفوني المحمول، أمسك تليفوني المحمول وأنا أحك عيني لأرى من المتصل، إنه طارق! أنهض وأجلس على سريري وأمسك بالهاتف حتى أرد:

="أهلا طارق"

-"ازيك يا آدم عامل ايه؟ لسه نايم؟"

="اه والله يا طارق، أصل انا تعبت أوي امبارح، أول مرة أسهر واشرب بالشكل دا"

-"اجمد كده يا آدم، دا التقيل جاي ورا"

="هو في لسه تقيل يا مايسترو؟"

-"طبعا يا آدم، انت لسه شوفت حاجة؟ سيب لي نفسك خالص، دا انت هتكون خليفتي في الملاعب"

="ماشي يا مايسترو زي ما تشوف"

-"طب اجهزوا عشان محضر لكم مفاجأة كمان يومين"

="بس انا مش هقدر آجي لو فضلت تعبان كده"

-"في ايه يا آدم؟ انشف كدا أومال، متخافش هتيجي بأذن الله"

="تمام يا معلم، سلام بقى عشان تعبان"

-"ماشي يا معلم، سلام"

ينظر آدم إلى الساعة فيراها الرابعة عصرًا:

"يااااه، أنا نمت كتير قوي، يا تري فيه حد في البيت؟"

ويقوم آدم بخطوات متثاقلة وجسم أشبه بالروبوت:

"ماما؟؟ رغدة؟؟

واضح كدا إن مفيش حد في البيت، قشطة"

ذهب آدم إلى المطبخ وفتح باب الثلاجة وأخرج منها طعامًا ليأكله، لأن معدته كانت فارغة منذ أمس، وبالرغم من هذا لم تتقبل معدته إلا القليل من الطعام ولذلك سكب القليل من العصير وذهب إلى الصالة ليشربه وكان يحك عينيه وشعره بحركة هيستيرية لأنه كان يشعر بصداع شديد في رأسه.

جلس على المنضدة وأخذ يشرب العصير ببطء وكلمات طارق تتعلق بذهنه:

"يا تري يا طارق ناوي على أية؟"

وفجأة، يرفع آدم رأسه وتلتقي عيناه بعيني أبيه في الصورة، حينها يضع آدم كوب العصير على المنضدة بعصبية ويقف ومازالت عيناه مثبتتين على صورة أبيه:

"أيوا هروح عند طارق في الويك إيند اللي جاي، أنا شاب وعايز أجرب كل حاجة، فبلاش تقف في طريقي أرجوك، أكيد لما كنت في سني كنت بتعمل أكتر من كدا، مش طالبة مواعظ".

ويدخل إلى غرفته مسرعًا ويبدأ في ارتداء ملابسه وهو يقول في نفسه:

"عايز أشم هوا، لازم أنزل دلوقتي قبل ما ماما تيجي وتفتحلي محضر"

وينزل آدم مسرعًا إلى مقهى صالح التي تبعد عن منزله بضع مترات وكان هناك أصدقاء له أيضًا، بعضهم جيران والآخرون يعرفهم من المدرسة:

-"أزيك يا آدم، فينك كدا أومال؟"

="موجود في الدنيا أهو، أخباركم ايه يا شباب؟"

-"كويسين بس انت أخبارك ايه؟ عينيك حمرا وشكلك مقريف"

="اه والله يا شباب، مصدع ودماغي ثقيلة"

-"شكلك تقلت العيار امبارح عند طارق"

فينظر آدم لهم باندهاش ويقول:

="ايه دا؟؟ ازاي عرفتم؟؟"

فيرد أحدهم:

-"طارق كان عازمني بس أنا ما روحتش وقال لي دا حتى آدم جارك موجود"

ويهز آدم رأسه بعدم مبالاة ويقول لهم:

="وما جيتش ليه؟"

فيرد الآخر ويقول:

-"لا يا عم، أنا مش قد طارق وسهراته، دي سكة اللي يروح ما يرجعش!!"

فيصمت آدم وينظر إلى الناحية الأخرى بسخرية ويقول في نفسه:

"انا بقى هروح وهرجع".

وتمضي ساعة وآدم يلتزم الصمت، ويكتفي بحركة من رأسه عند كل سؤال أو تعليق من أصدقاء المقهى ويتبادل معهم الضحكات من حين لآخر حتى رأى أمه ورغدة آتين من أول الشارع، وعندما تقترب الأم ورغدة من القهوة تراه رغدة وتحاول أن تفلت من قبضة أمها، وتقول لأمها بصوت عالي:

"سيبيني يا ماما، آدم أهو" ولا تلتفت الأم حتى لآدم، بل وتحكم قبضتها على يد رغدة حتى لا تفلت منها وتقول لها:

"يلَّا يا رغدة كدا عيب"

ووقف آدم واتجه إلى أمه وأخته وأمسك بيد رغدة، وحينها استطاعت رغدة إفلات يدها من قبضة أمها وصافحت بيديها الاثنتين آدم وهي تقول له:

-"وحشتني أوي، النهار دا كان يوم ملهوش لازمة في المدرسة عشان انت مش موجود معايا". وتقبل رغدة يد آدم وتعقب:

-"ما تغيبش تاني يا آدم عشان خاطري وما تسيبنيش لوحدي"

فضحك آدم لها واستمر في سيره وهو يقول:

="حاضر يا رغدة، مش هسيبك لوحدك تاني أبدًا".

ويصعد الثلاثة إلى المنزل.

ويمر يومان ويأتي اليوم الموعود، الذي يجهز لنا طارق فيه سهرة خاصة مليئة بالمفاجآت.

طيلة اليوم الدراسي كنت أحلم بهذه السهرة، وما الذي سيحدث فيها، رجعت إلى البيت بعد يوم دراسي طويل والشوق يتملكني:

"يا ترى محضر لنا أيه جديد يا طارق؟؟ ما انت كلك مفاجآت"

هذا اليوم لا يحتمل مشاجرات فارغة مع أمي، ولذلك -ولأول مرة- التزمت الصمت في أشياء كثيرة، بمعنى أصح (أكبر دماغي) حتى لا تعكر المشاجرات دماغي العالية!!! ولكن أمي وكالعادة لا تستسلم أبدًا:

-"رايح فين يا آدم؟؟"

="هسهر برا"

-"عشان كدا اتغديت بسرعة ولبست بسرعة؟؟"

="اه"

-"طب هتسهر فين يا ابني، و مع مين وهترجع امتى؟؟"

="هسهر برا مع ناس ما تعرفيهمش، وفين مش عارف وهرجع امتى، لما السهرة تنتهي، وكفاية أسئلة بقى"

-"يعني ايه كفاية أسئلة؟؟ هو انت كل ويك إيند تسهر برا وترجع وش الصبح؟"

"وش الصبح؟؟ حلو أوي وش الصبح".

وبهز آدم رأسه باستنكار ويردد كلام أمه على سبيل السخرية،

-"استني يا ابني"

وأنصرف مسرعًا لأنهي هذا النقاش عديم الفائدة،

لقد اقترب الموعد، وبدأ جرس الهاتف يرن وأنا في طريقي لطارق، أخرج الهاتف من جيبي للرد، إنها أمي بلا شك ولكني أجده طارق:

="الو، ازيك يا مايسترو، انا جاي في الطريق أهو"

-"فينك يا ابني؟؟ مش هنبدأ من غيرك، السهرة نار واحنا هنولعها يا معلم"

="حاضر، حاضر، جاي في الطريق أهو، يا ترى محضر لنا أيه يا مايسترو؟؟؟"

-"صنف جديد بيودي فوق السحاب، وفيلم جديد نااار"

="حلاوتك يا معلم، طول عمرك مايسترو".

أخيرًا وصلت لمنزل طارق، فتح لي الباب بكل حفاوة:

"ادخل يا بطل.

أدخل إلى المنزل مسرعًا وأنا أقول:

"مسا مسا".

بدأنا السهرة بتشغيل الفيلم، وهو بالطبع للكبار فقط!!! وكان أفظع من الفيلم السابق الذي رأيناه ليلة الكريسماس، إنه حقًا مختلف، وبدأ الكل في شرب الكحوليات والسجائر المحشوة بجميع أنواع المخدرات، وبدأ الكل يتمايل من الانسجام والمتعة، مع تصاعد الدخان الأزرق، ما أشبه الليلة بالبارحة، كنت أعتقد أن هذه الليلة ستنتهي هكذا، حتى سمعنا جميعًا طارق يقول:

-"يا جماعه في صنف جديد لازم نجربه سوا، اتعرض عليا وقلت لازم كلنا نجربه، عمري ما هبقى بخيل مع أعز أصدقائي"

-"هات اللي عندك يا معلم"، هكذا قال عمر.

وقال أشرف:

-"احنا مستعدين يا كبير".

وقال آخر لا أستطيع تذكر اسمه، وكان من أصدقاء طارق المقربين:

-"يا ترى ايه يا كبير؟؟؟"

ورأيت طارق يخرج من جيبه كيسًا بلاستيكيًّا شفافًا وصغيرًا، به مسحوق أبيض ويرفع يده ممسكًا بالكيس ويبتسم ابتسامة عريضة ويقول:

-"أعلى دماغ يا رجالة".

فقال أحدهم:

-"ايه ده؟؟ بودرة؟؟ هنشم؟ هي دي الدماغ ولا بلاش".

فيرد طارق ويقول:

-"لا يا معلم، هنحقن!!! سيب لي نفسك خاالص".

وبدأ الكل يتهافت ويشمر ذراعه لطارق وهو يقول:

-"يا جماعة بشويش، واحد واحد، السهرة هتبقى عال بأذن الله"

ولأول مرة ينتابني شعور بالخوف، ويرتعد قلبي وتتجمد أطرافي، ويشل لساني، عندما رأيت (السرنجات) تتبعثر هنا وهناك، وكل شخص يأخذ الجرعة يتهاوى إلى الأرض ويأخذه سبات عميق ولا أسمع غير صوت آهات ضعيفة، ولا أعلم إذا كانت من الألم أم من المتعة:

-"هتعلي الدماغ امتى يا معلم؟؟" وهكذا قال لي طارق هذه الجملة وهو ينظر لي، ولأول مرة أتراجع وأخطو خطوتين إلى الخلف، وأقول بصوت خافت متلعثم:

="اعفيني يا مايسترو".

تقبلها طارق بضحكة صاخبة وقال لي:

-"وماله، طب تعال اديني دي"

ووجدته يمسك بسرنجة مليئة بسائل أبيض اللون، وبدأ طارق يمسك بذراعه ويقول لي:

-"يلّا اديني، اتجرأ بقى يا آدم"

فنظرت له بنظرة إشفاق وأنا أقول له:

="مش عارف، مش قادر"

فضحك طارق مجددًا وقال:

"هو أنا هستناك يا مبتدئ تديني الجرعة؟؟؟ أنا هدي لنفسي، بص واتعلم"

ووجدت طارق يغرس الإبرة في أحد الأوردة المنتفضة من ذراعه ونظرت إلى السائل وهو يدخل جسم طارق، ما هذا السائل الذي صنعه طارق من المسحوق الأبيض العجيب ومجموعة من السوائل؟؟؟ وما فائدته؟؟ وهل هو حقًا يذهب العقل ويأخذنا في جولة فوق السحاب!!!

نظرت إلى طارق لأراه شبه مستفيق، وقال لي:

-"جرب يا آدم مش هتندم، ده مزاج عالي أوي" ولوهلة حدثني شيطان نفسي أن أجرب، ونظر لي طارق:

-"جرب، ده انا هاخد جرعة واتنين، أصل انا دماغي متكلفة مش زيكم عيال سيس"

في وسط هذا الجو المخيف المثير وجدت تليفوني يرن، إنها أمي، جاءت مكالمتها في الوقت المناسب، ولأول مرة أرد عليها وقبل أن تتفوه أمي بكلمة وجدتني أقول مباشرة:

"طيب، طيب انا جاي على طول أهو".

وكأن مكالمة أمي هي المفتاح الذي سأفتح به باب خروجي من هذه الورطة، خرجت مسرعًا وأنا أقول لطارق:

"معلش يا مايسترو، جد جديد في البيت ولازم أمشي دلوقتي".

وأشار لي طارق بيده أنه موافق ويسمح لي بالرحيل.

لا أعلم كيف خرجت من هذا البيت، وهل حقًّا أنقذت نفسي من تجربة مجهولة المصدر والنتائج، أم أنني حرمت نفسي من مغامرة مثيرة فوق السحاب، وقد تكون هي الأفضل على الإطلاق؟؟

لماذا أنا متردد هكذا، غدًا سيحكي لي الشباب عن تجربتهم إن كانت خطرة أم مثيرة، على العموم، لن يفوتني الكثير!!!

إنه صباح الغد (الجمعة) ولأول مرة أستيقظ فيه مبكرًا والشعور بالخوف مازال يتملكني، لماذا استيقظت مبكرا هكذا؟ وما هذا الشعور الغريب، صورة سهرة الأمس مازالت بمخيلتي، أمسكت الهاتف وأنا متشوق لأعرف ماذا حدث:

"يا تري اتصل بمين؟؟؟ أكيد مش هتصل بطارق عشان ما يضحكش عليا، أنا لو هتصل، هتصل بعمر أو بأشرف، عشان آخد نبذة عن تجربتهم وأقرر، هل هروح وأجرب ولا لأ"

="ازيك يا عمر، عامل ايه؟؟"

-"ايوا يا آدم انت فين؟؟ هو انت روحت فين امبارح؟؟"

="انا مشيت عشان كان عندي ظروف، ممكن تقولي نبذة عن الصنف الجديد؟؟؟"

-"أوعى تجربه، ده احنا في المستفشى دلوقتي بسببه"

="طب وطارق ماله؟؟؟ كويس ولا ايه طمني؟؟؟"

-"استنى هسأل الدكتور لأن طارق من ساعتها في الطوارئ وبقالهم ساعتين بيسعفوه لأنه تقل في العيار امبارح"

="ايه ده؟؟ هو طارق في المستشفى وما تقوليش يا عمر كدا برضه؟؟؟" فرد عمر قائلًا:

-"بسيطة إن شاء الله ما هو طارق متعود"

="طب طمني يا عمر أرجوك، طب أجيلكم؟؟ أنتم في مستشفى ايه؟؟؟"

-"استنى يا آدم فيه دكتور خارج من عند طارق أهو، ايه الأحوال يا دكتور؟؟"

-"أنا آسف، تعيش انت"

-"أيه ده طارق مات؟؟ طارق مات يا آدم!!!!!".

سمعت صوت الدكتور ويليه صرخة عمر وأنا في ذهول تام، وسقط الهاتف من يدي وانهمرت الدموع من عيني.

لقد فارق طارق الحياة بعد تناول جرعة زائدة من الهيروين، لقد كان موت طارق أفضل رد على تساؤلات آدم وحيرته عن التجربة الجديدة، فكان ردًا قاطعًا لا يحتمل الشك، إن الله أنقذنه من موت محقق، لقد انسحب في الوقت المناسب، فهل يستحق طارق الموت؟؟ وهل موت طارق سيغير شيء في آدم؟؟

الفصل السابع

المايسترو الجديد

لقد كان موت طارق مؤثرًا جدًا بالنسبة لي، ولكن هل من الممكن أن يكون موت طارق دافع لأكمل مسيرته وأن أصبح المايسترو الجديد كما كان يحلم طارق؟

نعم، يجب عليَّ أن أحقق حلم طارق وأن أكمل مسيرته، يجب أن تكون عودتي أشرس وأشرس من السابق!

ولكن هل من الممكن أن تكون مسيرة طارق هذه طريق هلاك؟ هل سأكون مثل طارق في كل شيء حتى نهايته؟ هل سينتهي بي الأمر بموت بجرعة مخدرات زائدة مثلًا؟ أو مريضًا بمرض خطير نتيجة للإدمان؟

هل سيدخل طارق الجنة أم النار؟

أصبح عقل آدم مزدحمًا بالأفكار والتساؤلات المتناقضة، بعضها يجعله ساكنًا ساكتًا يفكر وبعضها يجعله يمضي قدمًا بخطوات سريعة نحو طارق.

أصبحت شخصيته أعنف من ذي قبل، يعشق القيادة والعند والكبر وابتكار كل ما هو فاسد وكأنه انقسم إلى شخصيتين، شخصية تخاف من مصير طارق والأخرى تريد أن تكون نموذجًا مطورًا من المايسترو، ويبدو أن الشخصية الأخيرة هي الأقوى وتريد قمع وسحق الشخصية الأولي، ولذلك أصبح آدم إنسان أسوأ بكثير من ذي قبل، مقالب المدرسة والسلوكيات الغير مقبولة أصبحت عادة يومية وأكثر خطورة وشراسة وأصبح كل ويك إيند تاريخ أسبوعي لكل الموبقات،

ضم آدم الكثير من الأعضاء الجدد للشلة وتعمد أن يكونوا أصغر منه سنًا ليصبح المايسترو فعلا، لأن طارق وأشرف كانا أكبر أعضاء الشلة سنًا، أشرف؟ أين هو أشرف؟ لقد دعوته مرارًا وتكرارًا للرجوع إلى الشلة ولكن لم يجب على أي اتصال من اتصالاتي، ولم أره منذ موت طارق.

أجلس علي المقهى مع مجموعتي الجديدة والتي تضم أيضًا باقي أعضاء الشلة القديمة عدا طارق، أشرف وعمر، وأنا المايسترو، إن شلتي فاقت شلة طارق عددًا ونشاطًا وقوة، اجتمعنا في القهوة لننطلق لمكان جديد نبدأ منه مغامرة جديدة.

="حد يعرف يا شباب فين أشرف وعمر؟؟"

-"ما شفناهمش من شهر يا مايسترو" يرد أعضاء الشلة يدعى محمود، ويرد رامي:

-"أشرف سافر هو وعائلته لدولة من دول الخليج و محدش يعرف عنهم حاجة من ساعة ما سافروا"

ويرد آدم متفاجئًا:

="ايه ده؟؟ ما ودعش حد قبل ما يمشي؟ ولا بعت لحد عنوانه؟!"

-"لا يا مايسترو، ما قالش لحد"

="غريبة". يرددها آدم في استعجاب،

-"والأغرب يا مايسترو الواد عمر الهايف أخو طارق اللي بقى غريب خالص".

ويرد آدم بسرعة:

="ليه بتقول عليه كده ده كان واحد من الشلة وزي أخونا، عيب ما أسمحلكش".

فيرد آخر:

-"استني بس يا مايسترو، عمر فعلًا بقى غريب، ما بقاش يتكلم معانا خالص، حتى لما نسأل عليه مابيردش علينا إلا بكلمتين"

="أكيد متأثر بموت أخوه، أنا مقصر في حقه، لازم اسأل عليه"، آدم معقبا.

-"بيقولوا بقى شيخ يا مايسترو، هههههه".

فيرد آدم:

-"ملناش دعوة يا محمود، بس الواجب إن أنا أسأل عليه".

يقف آدم أمام باب شقة عمر مضطربًا، يرن الجرس بكل توتر وقلق، فروح طارق تهف على المكان ولكنه يستجمع قواه، يفتح باب الشقة ويجد والدة طارق شاحبة الوجه واهنة العظم، عيناها متورمة من كثرة البكاء، لم تعرفني في البداية:

-"انت مين يا ابني؟؟"

="أنا آدم صاحب طارق وعمر يا طنط، ممكن أقابل عمر؟؟ أصل اتصلت به كتير ماردش عليًا فقلت آجي اسأل عليه"

-"أدخل يا ابني فيك الخير، عمر جوا في أوضتة"

دخل آدم إلى الشقة وأحس بقبضة في قلبه وخوف شديد، نفس الشعور الذي انتابني آخر يوم لي في هذه الشقة.

دخلت أم طارق لعمر وتركتني بمفردي في الصالة التي تغيرت كثيرًا منذ آخر مرة، فالأثاث مختلف و ترتيب الأشياء مختلف أيضًا حتى

ألوان الجدران اختلفت، يبدو أنهم أرادوا أن ينسوا ما حدث بتغيير معالم الشقة، ومن خلال نظراتي العابرة لاستكشاف معالم الشقة الجديدة، تفاجأت بصورة طارق تعلو أحد الجدران ويلف على أحد جوانب الصورة شريط أسود، ذهب آدم إلى الصورة بخطوات يملؤها الحزن ونظرات مليئة بالدموع، إنه طارق يضحك كعادته.

وعندما أقترب من صورة طارق أكثر وأكثر، أتذكر ذكرياتي مع طارق وأسمع صوته، وأتذكر كل مواقفه وأحداثه معي، أنظر إلى الأرض وأقول "الله يرحمك يا طارق"، ويكسر صوت الذكريات عمر بقوله "السلام عليكم"، أحتضن عمر بكل حنان وأقول له: ="عامل ايه يا عمر، أنا عارف إني مقصر جدا معاك".

-"اتفضل اقعد يا آدم، تشرب ايه؟؟"

="شكرًا يا عمر، مش عايز أتعبك، أنا جاي بس أطمن عليك وعلى طنط، بقالي كتير ما شفتكش وما اعرفش أخبارك"

-"الحمد لله يا آدم على كل شيء، أصل ماما تعبت بعد موت طارق، وقعدت معاها لحد ما ربنا شفاها وعلشان كدا كنت غايب من المدرسة، الفترة دي"

="ربنا يعينك يا عمر، بس بتقضي يومك ازاي؟؟"

-"الحمد لله، بقرأ جزء من القرآن كل يوم أنا وماما على روح طارق والتزمت بالفروض والنوافل من صلاة وصوم وكنت كل ما بزود من الفروض والنوافل والصدقات، ماما كانت بتتحسن حالتها"

="قرآن! فروض!! صلاة!!! انت اتغيرت أوي يا عمر"

-"اه طبعًا، ومين ما يتغيرش بعد اللي حصل، وللأحسن إن شاء الله"

وبدأ عمر يرجع ظهره إلى الوراء ويعتدل في جلسته وينظر لصورة طارق ويقول:

-"انت تعرف يا آدم ان طارق بيجيلي كل يوم في المنام، كابوس مش حلم! بشوف طارق جوا حفرة كبيرة جواها نار وبيصرخ وبيستغيث وانا مش عارف أقرب من الحفرة حتى عشان أنقذه ولكن الحمد لله"

وتبدأ ابتسامة الرضا تظهر على وجه عمر فأتعجب وأقول:

="ياااه، دا حلم مرعب أوي، وبعدين انت بتبتسم ليه هي دي حاجه تخليك تبتسم يا عمر؟؟"

-"مرعب ومخيف، دا أنا كنت كل يوم بصحى من النوم مفزوع لدرجة إني كنت بخاف أنام، أصل يتكرر الحلم تاني"

="طبعًا، بس ايه سر ابتسامتك؟"

-"دي ابتسامة الرضا والثقة بالله!! وبعدين طارق ما بقاش بيستغيث لما بدأت أتغير واعمل خير، على فكرة احنا بنزور طارق كل جمعة"

="ماشي تمام، أنا ممكن آجي معاكم بكرة وبعديها تيجي معايا للشلة، أصلك واحشهم أوي ونسهر سهرة حلوة تطلعك برا المود ده"

-"سهرة؟؟ شلة!! لا طبعًا يا آدم، كفاية اللي حصل لأخويا، ربنا يهديك يا آدم، العمر قصير ومحدش عارف امتي هنموت"

وفي هذه اللحظة سمع آدم صوت آذان نابع من هاتف عمر:

-"معلش يا آدم، اسمحلي أصلي العشاء وبعديها نكمل كلامنا، انت متوضي يا آدم؟؟"

="لا يا عمر"

-"خلاص، ممكن تنزل معايا تتوضى في الجامع ونصلي مع بعض"

="اهه؟!" آدم مندهشًا، وقبل أن ينطق آدم بكلمة أمسك عمر بيده مستعدًا للنزول.

-"انت نازل يا عمر يا ابني؟؟" صوت أم عمر وهي تأتي من غرفتها وتستند على الجدران وتخطو خطوات بطيئة، فيسرع لها عمر ويقبل يدها ورأسها ويقول لها:

-"نازل أصلي العشاء وراجع تاني يا ست الكل، عايزة حاجة من برا؟؟"

-"تسلم يا ابني، خد بالك من نفسك وما تتأخرش"

="مسافة السكة يا أمي".

كل هذا وأنا في ذهول تام، هل هذا عمر حقًا أخو المايسترو طارق؟ ماذا حدث له؟ فتح عمر الباب و أخذ بيدي محاولًا أن أسرع:

="براحة يا عمر، مفيش حد بيجري ورانا"

-"عايز ألحق الصف الأول في المسجد"

="مش أنا بقيت المايسترو في شلتنا يا عمر"

-"لا حول ولا قوة الا بالله، ربنا يهديك يا آدم أنا خايف عليك، تعرف يا آدم طارق كان بيصرخ في الحلم ويقول ياربتني أرجع الدنيا تاني عشان أقدر أصلح أخطائي، احنا حياتنا اللي فاتت دي يا آدم كانت كلها غلط ولازم نغيرها".

وصل آدم وعمر إلى باب المسجد، همّ آدم بالذهاب

-"أنت رايح فين، مش هتتوضى وتصلي معايا يا آدم؟؟"

="لا لا شكرا، انا كنت جاي بس أطمن عليك، هضطر استأذن منك يا عمر، معلش أصل الشلة مستنياني".

وينصرف آدم و يترك عمر واقفًا على باب المسجد و هو يتمتم: "لا حول ولا قوة الا بالله".

يوم طويل ممل من أيام المدرسة، ويجلس آدم وراء المسرح القديم للمدرسة، تلك المنطقة المهجورة التي لا يذهب إليها أحد، ولكن آدم ليس كأي شخص، فهو دائم التواجد فيها للهروب من الحصص وشرب السجائر وقضاء وقت ممتع على الهاتف المحمول وفي هذه الأثناء -وبحسه الثاقب- يشعر بحركة غير عادية في المدرسة، يسمع أصواتًا عالية ونداءً عاجلًا في إذاعة المدرسة وقت الحصص!! ويفاجأ بمحمد، واحد من الشلة يصغر آدم بأكثر من ثلاث سنوات:

-"مايسترو، هو انت هنا والدنيا مقلوبة عليك؟؟"

="خير يا محمد، في ايه؟؟"

-"مامتك في الريسبشن وعايزاك هي والمديرة مش عارفين ليه"

="ماشي ماشي، هروح أهو"

ويذهب آدم مسرعًا إلى الريسبشن ليس استجابة لنداء أمه، بل فضولًا ليعرف ما الذي يحدث.

وصل آدم إلى الريسبشن خلال دقيقتين ليجد أمه وسط المدرسة منهارة من كثرة البكاء وجميع المدرسات يهدئونها، وعندما رأتني أمي جرت نحوي وهي تقول: "رغدة يا آدم رغدة".

الفصل الثامن

رغدة

"الحقني يا آدم، رغدة أختك يا آدم"

هذا صوت أمي يخترق سكون المشهد الذي لا يتضمن غير بكاء بعض المدرسات وحزن الأخريات، غموض حزين يسود المكان وفجأة أحسست بزلزال يهز جسدي، كان قلبي يرفرف خوفًا وتوقف عقلي عن التفكير وشل لساني لدرجة أنني لم أستطع أن أسأل أمي ماذا حدث، لأول مرة أشعر بالرعب والخوف الشديد من المستقبل، نظرت إلى أمي ولم أتفوه بكلمة ولكن عيني تفضحني و أنفاسي المتلاحقة تسأل مليون سؤال:

="أين رغدة؟ وماذا حدث لها وكيف حدث ومتي؟؟؟"

-"شد حيلك يا آدم وما تعملش في نفسك كدا وادعي لها ربنا ينجيها".

هكذا قالت أحد المدرسات، وأمي مازالت تصرخ:

"يا حبيبتي يا بنتي، كان مستخبي لك فين دا كله فين يا رغدة، يا حبيبتي يا بنتي، نجيها يا رب".

إنه واقع مزعج، أفقد السيطرة عليه، أحيانًا يتحمل الأنسان ما لا طاقة له به ثم ينفجر مرة واحدة ضاربًا بكل التوقعات عرض الحائط.

هناك انفجر آدم بصوت مدوي:

="كلكم السبب، ايه اللي حصل لرغدة؟ لو حصل لها حاجه هيكون ذنبها في رقبتكم".

-"ليه يا آدم؟؟ احنا عملنا ايه؟؟؟" أحد المدرسات.

-"معلش يا جماعة هو مصدوم" مدرسة أخري.

-"اهدي يا ابني ويلّا عشان نلحق الإسعاف" هكذا قالت أمه وهي تحاول أن تحتضنه للمرة الأولى منذ سنوات!! ابتعد آدم عن أمه وقال:

="إسعاف؟؟ رغدة ايه اللي حصل لها؟"

ردت إحدى عاملات النظافة في المدرسة وهي تبكي:

-"والله يا ابني ما هو ذبني، أنا كل يوم بمسح وأنشف الحمامات، بس معرفش مين اللي بيكب الصابون فيها ويملاها ميّه بالشكل ده؟؟" وأسهبت العاملة وقالت: "رغدة أختك راحت الحمام وبعدين سمعت صوت خبطة قوية، دخلت الحمام لقيتها يا حبيبتي مرمية على الأرض وفي دم نازل من راسها وأرض الحمام مليانة صابون وميّه وحاجات غريبة بتزحلق". وقعت كلمات هذه العاملة البسيطة على آدم كالصاعقة،

حمام؟؟ صابون؟! مواد بتزحلق؟؟؟؟ هذه الأشياء من أعمالي أنا!!! وإن لم يكن أنا، فهي بالتأكيد واحدة من أفكاري التي نفذها واحد من الشلة،

="انتِ بتقولي أيه؟ رغدة اتزحلقت؟ طب هي كويسة؟؟ ايه اللي حصل لها تاني؟ والدم نزل ازاي؟ أنا عايز أشوف رغدة!!"

أمسكت أمه يده وبدأت في السير وهو يمشي معها كالدمية التي لا تستطيع الحراك وهناك رأى أخته على مرمى البصر وهي محمولة على ناقلة الإسعاف ويحملها المسعفون، حاول الجري لها ولم يستطع،

وكأن رجليه مثبتة في الأرض بمسامير، مد ذراعه في الهواء وهو يقول: "رغدة، رغدة، سامحيني، سامحيني أرجوكي"

انطلقت عربة الإسعاف وبها رغدة فاقدة للوعي ووجهها مليء بالدماء ومعها أمها وآدم، اضطرت الأم لدفع آدم بيديها دفعًا حتى يستطيع الحراك، لدرجة أنها كادت أن تحمله حتى يستطيع السير وركوب سيارة الإسعاف، وصلت سيارة الإسعاف إلى المستشفى القريبة من المدرسة، ورأي آدم حركة غير عادية عند وصول عربة الإسعاف إلى المستشفى فالكل يتحرك بسرعة ويتكلم بسرعة وعلى وجههم علامات القلق والجدية، وعندئذ أحس آدم أن الأمر جلل، بعد مرور حوالي نصف ساعة خرج الدكتور من غرفة الطوارئ التي كانت أشبه بالمعركة، قال الدكتور للأم:

-"أنا آسف، حالتها صعبة جدًا، كسر في قاع الجمجة، وكسر بالساق والكتف الأيمن وللأسف ارتجاج في المخ، هي دلوقتي في غيبوبة، وهتدخل العناية المركزة، ادعولها"

انهارت أمي ووقعت على الأرض تبكي وتصرخ: "يا حبيبتي يا بنتي، ربنا ينجيكي"

لم أر أمي منهارة هكذا إلّا يوم وفاة والدي، كانت رغدة وقتها طفلة رضيعة لا تتجاوز الشهرين، لم تر رغدة والدي، كنت أنا والدها وأخاها وصديقها، لم تر في حياتها الصغيرة غيري أنا، "أنا؟؟ أنا الذي تسبب في إيذائها بدون قصد بكل وحشية، أنا السبب" هكذا يقول آدم لنفسه.

-"مفيش داعي لوجودكم هنا دلوقتي، خلصوا الإجراءات الإدارية واحنا علينا الباقي، وادعو ليها"، هكذا قال الطبيب ثم رحل، ترك آدم أمه تبكي وذهب إلى الشباك الزجاجي المطل على الغرفة التي توجد بها رغدة ليجد أخته في صورة لم يتخيلها لها من قبل، أنابيب غريبة تخرج

من فمها، أطباء يفتحون عينيها وينظرون بكل دقة، وممرضون يقيسون العلامات الحيوية لها ويكتبون ما يقوله الأطباء، وآخر يعلق المحلول في يدها الصغيرة، رأسها الصغير عليه شاش وقطن وبعض آثار الدماء:

="رغدة، سامحيني يا رغدة، أرجوك ما تسيبينيش".

لا يعلم آدم كم مضى من الوقت وهو يقف أمام هذا الشباك الزجاجي ولكنه أحس بيد أمه وهي تربت على يده وتقول:

-"روح يا ابني انت شكلك تعبان".

فأرد بسرعة:

="أروح؟؟ وأسيب رغدة في الحالة دي؟؟ لا طبعًا"

-"يا حبيبي انت تعبان وشكلك هتنام على نفسك، روح و ارتاح"

فوجئ آدم أن أخته تنقل لغرفة العناية المركزة في الطابق الرابع للمستشفى ويكتب على الغرفة: "ممنوع الزيارة"، أنهت الأم كل الإجراءات في المستشفى.

-"يلّا يا آدم روح البيت عشان ترتاح، أنا هفضل مع رغدة هنا".

أرسلتني أمي إلى البيت.

ذهب آدم إلى المنزل بمفرده، لقد أحس أن العالم كله ينهار من حوله.

"إن رغدة مازالت صغيرة لتحمل كل هذا العناء".

فتح آدم باب الشقة ودخل -لأول مرة- البيت بمفرده، الشقة يعمها الهدوء المخيف ولأول مرة يشعر بالوحدة، وكأنه يرى الشقة لأول مرة، فجدران المنزل كئيبة وكأنها تحزن على رغدة، دخل مباشرة إلى غرفة

أخته وفتح الباب بهدوء وكأنه يأمل أن يراها تنام على سريرها، دخل الغرفة فوجد ألعابها متناثرة على الأرض، ورائحتها الزكية تملأ المكان، ويعلو صوت ضحكاتها البريئة في أذنه، يلقي آدم نفسه على سرير أخته ويذهب في سبات عميق وهو يردد: "سامحيني يا رغدة".

لم يتحمل عقل آدم كل هذا التشويش، فهو لا يعلم ما هي الخطوة القادمة ولا يعرف ماذا سيحدث، وهناك دافع داخلي بعدم تقبل الواقع برمته، أصبح سرير رغدة هو حياة آدم، لا يغادر غرفتها ولا يترك سريرها، ظل آدم على هذا الحال أكثر من ثلاثة أيام، يحبس نفسه في غرفة رغدة ولا يخرج إلا للضرورة، لا يعرف الليل من النهار ولا يعلم فعليًا كم مضى من الوقت، لا يربطه بالحياة إلا صوت أمه التي يأتي كل فترة: "افتح يا آدم الباب، ما تعملش في نفسك كده يا ابني".

ولا يوجد لكلام الأم صدى عند آدم وفي كل مرة كان يرد آدم على كلام أمه: "رغدة عامله ايه؟؟ اتحسنت؟"

ترد أمه في كل مرة: "ربنا يستر يا ابني"، إلى أن جاءت الأم في يوم وطرقت باب الغرفة طرقًا شديدًا:

"افتح يا آدم، افتح بسرعة!!".

فقام آدم منزعجًا من نومه العميق الذي كان يتعمق فيه إثر الحبوب المخدرة التي يحرص على تناولها يوميًا بعد حادثة رغدة حتى يستطيع النوم والغياب عن الواقع، فتح آدم الباب مسرعًا وهو يقول: "رغدة، رغدة مالها؟؟ حصل ليها حاجة؟"

فتدخل أمه إليه و تحتضنه وتقول له: "أرجوك يا آدم فوق لنفسك، مش عايزة أخسركم انتم الاتنين، بكرة امتحاناتك يا ابني وانت غايب من المدرسة بقالك كتير، فلازم تروح بكرة، أرجوك يا آدم انت اللي باقي لي دلوقتي يا ابني، انت الضهر اللي بستند عليه، لو تعرف

يا ابني انا بحبك قد ايه، ما كنتش عملت في نفسك كده". اندهش آدم من كلام أمه، فهي عادة ما تنتقده وتوبخه، أما الآن فقد تغيرت الأم، ووجد نفسه يرد عليها تلقائيًا وبدون تفكير: "حاضر يا ماما، هنفذ كل أوامرك".

الفصل التاسع

عزرائيل

في صباح اليوم التالي تدخل الأم على آدم وهو نائم في غرفة رغدة:

"اصحي يا آدم النهار دا امتحانك، أنا مش هنزل لرغدة إلا لما اطمئن عليك"

فيستيقظ آدم مسرعًا لأول مرة ويرتدي ملابسه بعد دخوله الحمام وهو على عجلة من أمره فتحضنه أمه وتقول له:

-"عايزاك تجاوب كويس النهار دا، انسى موضوع رغدة وركز في امتحانك" فيرد آدم تلقائيًا:

="طيب"

ينزل آدم في المصعد وهو لا يعلم ما هو الدافع وراء طاعته لأمه بهذه السرعة ولا يعلم لماذا نفذ طلباتها دون أدنى مقاومة.

يخرج آدم إلى المصعد متجهًا نحو حافلة المدرسة التي تنتظره، وبمجرد صعود آدم إلى الحافلة تسأله مس آلاء بلهفة:

-"رغدة عاملة ايه دلوقتي يا آدم؟ طمنا عليها".

فيرد آدم بحزن:

="والله زي ما هي يا مس آلاء، ادعولها".

وتتحرك الحافلة ويشد انتباه آدم عدم وجود عم هاني،

="هو فين عم هاني يا مس آلاء؟؟" فترد عليه بجدية:

-"المدرسة استغنت عن خدماته لأنه كان مهمل في شغله والحافلة دايمًا مش نظيفة ومليانة زبالة".

فيجد آدم نفسه غير قادر على الرد من هول المفاجأة، اتجه آدم إلى مقعده ورأسه تتزاحم فيها الأفكار.

عم هاني، أعرفه منذ سنوات، هذه المهنة كانت مصدر رزقه الوحيد، له خمسة أطفال وزوجة، لم يهمل عم هاني في عمله، بل كان شديد الحرص عليه، كان ينظف الحافلة أكثر من مرة في اليوم، أنا السبب، لقد طرد الرجل من عمله وتشردت أطفاله بسببي.

وصل آدم إلى لجنة الامتحان وكل الأحداث الماضية تمر في خياله، موت طارق، حادثة رغدة، وطرد عم هاني من عمله.

خرج آدم من لجنة الامتحان وهو لا يعرف ماذا كتب أصلًا، والتف حوله كثير من الزملاء يسألونه:

"ازي رغدة؟؟" "عامله ايه؟؟" "كتبت كويس في الامتحان؟؟" "طب انت عامل ايه دلوقتي؟"

ينظر آدم إلى كل زملائه ببرود ويرد على كل أسئلتهم:

"جاوبت زي كل سنه!!"

اتجه آدم إلى الحافلة وكان على مرمى البصر عم محمد السواق الجديد يجلس بجوار الحافلة ويشرب كوبًا من الشاي، جاءت صورة عم هاني في عقل آدم وهو ينظف الحافلة في نفس التوقيت، ما هو ذنب عم هاني؟؟؟

يجلس آدم علي الكرسي المخصص له وهو يقول:

"ذنبه إن انا كنت في حياته، زي رغدة بالضبط"

نام آدم في الحافلة من شدة إرهاقه وأفاق على صوت مس آلاء وهي تقول له:

-"يلّا يا آدم وصلت، تبقى تسلم لي على رغدة، ربنا يشفيها يا رب"

هز آدم رأسه بالموافقة وقال لها

="حاضر"

نزل آدم من الحافلة واتجه إلى العمارة حيث وجد أمامها عربة كبيرة وبها الكثير من الأمتعة ولكنه لم يهتم واتجه إلى باب العمارة ففوجئ بالأستاذة فاطمة جارته في نفس الطابق وهي تحمل حقيبة سفر وتسند أباها المريض، عندما رأته الأستاذة فاطمة ابتسمت له وقالت:

-"ازيك يا آدم وازي رغدة دلوقتي؟؟ ألف لا بأس عليها".

فيرد آدم بذهول وكأنه أحس بشيء ما غير طبيعي في ابتسامة الأستاذة فاطمة

="رايحة فين يا طنط فاطمة؟؟ انتِ هتمشي وتسيبينا!؟" فترد عليه:

-"استنى يا آدم أوصل بابا للعربية وبعديها أكلمك عشان أنا عايزاك".

كانت الأستاذة فاطمة تحتل مكانة معينة في قلب آدم على الرغم من أنها لم تسلم من شره، لها فضل كبير في رعايته وهو صغير عندما كانت تذهب أمه إلى العمل، وكانت دائمة السؤال عليه، وفي كل عيد ميلاد له كانت تحضر له هدية، وبالرغم من كل ذلك كان آدم يستمتع بإيذائها، فقد كان يرمي القمامة أمام شقتها باستمرار وكان يعلق

المصعد وكان يرن الجرس عليها ويجري مئات المرات، على الرغم من أنه كان يعلم بمرض والدها.

-"آدم!! ازي رغدة بجد دلوقتي، انت لما ما رديتش عليا خفت"

="والله حالتها سيئة وصعبة جدا يا طنط، أرجوك ادعي لها"

-"ربنا ينجيها ويحفظها"

="رايحة فين يا طنط؟؟"

-"والله يا آدم بابا ساءت حالته من الإزعاج اللي كان بيحصل، المصعد متعلق على طول والزبالة كانت بتبقى مرمية في الدور، مش عارفة مين يجيله قلب يقلق الناس بالشكل ده، عمومًا قررنا نعزل"

="أرجوك يا طنط ما تسيبينيش وتمشي"

ربتت الأستاذة فاطمة على كتف آدم وقالت له:

-"انا هبقى معاك على طول، فاكر يا آدم المصحف اللي أديتهولك في عيد ميلادك اللي فات؟ اقرأ فيه كل يوم حتى لو صفحة وهتفتكرني على طول، أنا مابحبش الوداع، السلام عليكم".

وانطلقت الأستاذة فاطمة إلى العربة وهي تقول لآدم:

-"خد بالك من نفسك، لا إله إلا الله".

ويرد آدم بحزن:

="محمد رسول الله".

"زبالة؟؟ أسانسير متعلق؟ إزعاج؟ كل هذه أفعالي أنا!! أنا السبب برضه في رحيل طنط فاطمة".

اتجه آدم إلى شقته وكان شاردًا جدًا لدرجة أنه صعد على السلم ولم يستقل المصعد، بدأ يتسلل الحزن والندم إلى قلب آدم قليلًا، فتح آدم باب الشقة وكأن هموم الدنيا يحملها على عاتقه، فكانت خطواته متثاقلة وأفكاره متلاطمة وقلبه حزين، جلس آدم على أقرب مقعد في الشقة من الباب، وأخذ ينظر إلى صورة أبيه ويقول له:

"شايف اللي بيحصل يا بابا؟؟ كل دا بسببي صح؟".

دخل آدم إلى غرفته، وكانت هذه المرة الأولي بعد حادثة رغدة، فقد كان هناك حائلا بينه وبين غرفته بعد هذه الحادثة الأليمة، فقد كانت غرفته هي مقر الألاعيب والخدع التي أدت إلى هذه الحادثة.

وقعت عين آدم على مصحف الأستاذة فاطمة الذي كان يضعه في غرفته ولم يفتحه أبدًا، أمسك آدم المصحف بيديه، فوجد عليه طبقة سميكة من التراب، فمسحها بيديه وفتح المصحف لأول مرة بطريقة عشوائية، فوقعت عيناه على هذه الآية:

" وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِيﷺ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا (29) ".

لا يعلم آدم لماذا جاء طارق على باله عندما قرأ هذه الآيات، وقلب في المصحف مرة ثانية بطريقة عشوائية فوقع بصره على هذه الآيات:

"الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (65) ".

تذكر رغدة و ما حدث لها جراء أفعاله السيئة، أحس آدم بإعياء شديد لدرجة أنه أحس بنوبه نوم مفاجئ، ولكنه قاومها، كان هناك دافع غريب يدفعه إلى فتح المصحف والقراءة منه ثانيةً، ففتح

المصحف مرة أخرى وكأنه أحس أن الله سبحانه وتعالى يبعث له رسائل وعلامات، فأراد أن يعرف ما هي الرسالة الثالثة، فقاوم النوم ونظر في المصحف ليقع بصره علي:

" إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22) ".

وهنا شعر آدم بشعور غريب، قلبه بدأ يخفق بسرعة وأنفاسه تتسارع وجسمه ثقيل، وأصبحت فجأة الدنيا سوداء من حوله بل أصبح يتنفس بصعوبة شديدة، ولم يعد يرى ولا يسمع شيئًا، وفجأة وجد أمامه كائن غريب، أسود وطويل، ذو عين واحدة يخرج منهما شرارة الشر والغضب.

حاول آدم الابتعاد عنه ولكنه يقترب حتى انقض على آدم وتمكن منه، فخارت قوى آدم وأحس بالاستسلام، فيسحب آدم على الأرض وقد انقلبت غرفة آدم إلى أرض شاسعة سوداء مليئة بالحمم النارية والاشواك وبدأ آدم يتألم ويصرخ ويستنجد وينادي على أمه وعلى أخته حتى ينقذوه ولكن هيهات، ينظر آدم إلى هذا المخلوق الغريب الغليظ ويتوسل إليه أن يتركه،

"خلاص، انتهت حياتك يا آدم"، وهنا يدرك آدم أن هذا المخلوق هو عزرائيل.

يسحب عزرائيل آدم إلى حفرة كبيرة تحيطها النيران، أدرك آدم حينها أنها النهاية ولربما البداية، بداية الجحيم، هكذا؟؟ بكل

بساطة؟؟؟ وبدون مقدمات؟؟؟ حقًا إن الموت قريب، فيصرخ آدم ويقول:

"انا لسا عايز أعمل خير أجلته كتير، عايز أنهي عن منكر كنت بعمله، أرجوك سيبني أرجع للدنيا تاني، سيبني حتى ولو لفترة قصيرة".

فلم يستجب عزرائيل، وبدأ بإلقاء آدم في الحفرة الكبيرة المليئة بالنيران، إنها النهاية، بدأ آدم يتألم من النار وسمع صوت بجانبه يقول:

"ربي أرجعني أعمل صالحًا فيما تركت".

فينظر فيجد طارق، يتألم ويصرخ هو الآخر ويرجو من الله أن يرجعه للدنيا، حتى ولو ليوم واحد لكي يعمل صالحًا.

تعرف طارق على آدم وقال له:

"ما لحقتش نفسك ليه يا آدم قبل ما تيجي هنا؟ هو مش عمر كان بيحذرك؟"

كان الموقف أكبر من آدم، فلم يستطع الرد، ووجد أباه يقف على حافة الحفرة، يمد له يده ويريد أن ينقذه، فتبعده ملائكة بيضاء عن هذه الحفرة، وتبدأ ملائكة أخرى سوداء غلاظ وشداد بسكب النار والحمم حتى تمتلئ الحفرة، ويزداد الصراخ والألم، ويختنق آدم ويحس أنه تحت الأرض ولأول مرة يصرخ، ويقول:

"يا رب أنقذني".

ومازال على هذه الحال حتى تدفق إلى مسامعه صوت أمه:

-"آدم، آدم؟ اصحى يا ابني انت نايم بهدومك؟"

فتح آدم عينيه ليجد أمه أمامه وغرفته كما هي بأثاثها وجدرانها وأرضها، عاد آدم إلى الدنيا من جديد، أخذ نفسًا عميقًا وابتسم ابتسامة رقيقة.

"يلّا يا آدم قوم قبل ما الأكل يبرد".

فقام آدم مسرعًا بلهفة وقبل أمه واحتضنها بشدة،

-"مالك يا آدم يا ابني؟ انت عرقان ليه؟"

فيرد عليها آدم بحضن طويل ويبكي على كتفها ويقول:

="أنا اسف يا أمي".

فتجلسه أمه على الفراش ثانيةً وهو يبكي ويقول:

="سامحيني أرجوكي وادعي لي، سامحيني عشان ربنا يرضى عني"

فترد عليه أمه وهي تمسح دموعه وتقول:

-"مسامحاك يا ابني"

="عمري ما هزعلك تاني، أوعدك إن أنا عمري ما هعمل حاجة غلط".

تبكي الأم من الفرحة وتقول:

-"أنا متأكدة يا آدم، الحمد لله، استجبت يا رب لدعائي وحققت أمنيتي".

="ازي رغدة يا أمي؟؟"

-"زي ما هي، ربنا يستر".

فينهض آدم من مجلسه ويرد بحزم وثقة:

="هتكون كويسة أنا متأكد، وأنا هتصرف!!!".

يترك آدم والدته في الصالة ويدخل إلى غرفته، ويمسك القلم والورقة ويكتب:

ها يا نفس قد عدتي، فأريني أي صالح ستعملين قبل أن يأتي يوم تسألين فيه الرجوع فلا يستجاب لكِ.

سارِع بعمل الخيرات والأعمال الصالحات

"وما تَدْرِي نَفْسٌ ماذا تكسب غدًا، وما تَدْرِي نَفْسٌ بأي أرض تموت".

الفصل العاشر

العائد من الجحيم

صوت أذان يخترق أذن آدم فينتفض من نومه مسرعًا ويذهب إلى الحمام ويتوضأ ويدخل -بعد الاستئذان- إلى غرفة أمه ويوقظها بحنان حتى تصلي، تستيقظ الأم وهي في دهشة من أمرها، فهي تعلم أن آدم بدأ يتغير، ولكنها لم تكن تتوقع هذا على أرض الواقع.

-"ايه اللي مصحيك دلوقتي يا آدم؟؟"

="هصلي الفجر طبعا وهقرأ قرآن لحد الشروق".

ترك آدم والدته ليصلي وهي لا تصدق ما تري.

نامت الأم بعد الصلاة وظل آدم يقرأ القرآن حتى الشروق، كان هذا اليوم هو الأخير في الامتحانات وبدأ آدم يراجع على بعض المعلومات حتى يؤدي أفضل ما لديه في الامتحان، ولينقذ ما يمكن إنقاذه.

-"صباح الخير يا آدم، هو انت لسا صاحي من الفجر؟؟؟"

="أيوه يا أمي".

يقولها آدم وهو يحتضن أمه ويقبل رأسها ويدها،

-"مش هتيجي معايا نزور رغدة النهار دا وتطمن عليها؟؟؟ أنا خايفة يا ابني عليها اوي"

="ما تخافيش يا ماما أنا متأكد إنها هترجع أحسن من الأول".

نزل آدم وهو مليء بالطاقة الإيجابية:

="صباح الخير يا مس آلاء، حضرتك عاملة ايه؟ صباح الخير يا عم محمد، ربنا يقويك يا رب"

ردت مس آلاء باندهاش:

-"ازيك يا آدم يا حبيبي؟؟ انت أول مرة تسلم عليا، انت كويس؟؟؟" فيرد آدم مبتسمًا:

="كويس جدًا وهفضل كويس على طول، أنا آسف يا مس آلاء على أي خطأ ارتكبته في حقك، سامحيني، ممكن بعد إذنك أقول حاجه لزملائي في الباص؟؟؟ احنا لازم يا جماعه نلم أكبر مبلغ ممكن من الفلوس لعم هاني لأنه محتاج مساعدتنا".

وبدأ بالفعل جميع الزملاء في إبداء الرغبة في مساعدة عم هاني ولو حتى بمبلغ بسيط، ولكن الكل كان مندهشًا من التغير الملحوظ في آدم.

دخل آدم لجنة الامتحان وهو يعزم أن يبذل قصارى جهده حتى يرضي أمه، وجاء الامتحان سهلًا جدًا وكأنه هديه من الله لآدم، خرج آدم من لجنة الامتحان وهو سعيد جدًا، لسببين؛ الأول لأنه أجاب بإتقان في الامتحان، والثاني أنه جمع مبلغ كبير من المال لعم هاني.

يذهب آدم إلى مديرة المدرسة وهو على يقين أن من أفسد شيئًا فعليه إصلاحه، فذهب إليها واعترف لها بأن عم هاني كان مجتهد جدًا في عمله وكان من أكفأ الناس في العمل، وأنه هو من كان يرتكب هذه الاشياء على سبيل المزحة، وأخذ منها وعدًا بأنها سترجع عم هاني مع بداية العام الدراسي الجديد.

فيتوجه آدم بعدها إلى عم هاني وبحوزته النقود التي جمعها.

طرق آدم الباب ففتح له ابن عم هاني الصغير 'ميشيل'.

="مساء الخير، عم هاني موجود؟؟"

-"اه موجود، نقول له مين؟؟؟"

="قول له آدم".

وسمع آدم صوت عم هاني من داخل الشقة وهو يقول:

"مين يا ميشيل"، وقبل أن يرد ميشيل كان عم هاني ممسكًا بالباب ناظرًا باندهاش لآدم ويقول:

"آدم ازيك يا حبيبي، اتفضل"، رحب عم هاني بآدم و هو لا يعرف ما الذي أتي به، دخل آدم إلى شقة عم هاني فلفتت نظره صورة البابا كيرلس السادس بوجهه السمح وابتسامته التي تبهج من حوله و تمعن في الكلمات المطبوعة أسفل الصورة:

"لا تفكر في شيء، ولا تحزن علي شيء، ولا تلم نفسك على شيء، بل دع الأمر لمن بيده الأمر، لأنك انت لا تعرف شيء"

وكأن هذه الكلمات جاءت لتخفف شعور آدم بالذنب تجاه هذا الرجل الطيب.

="أنا متأسف يا عم هاني، أرجوك سامحني"

-"على ايه يا ابني، مفيش حاجة"

="أنا السبب في وضعك دلوقتي"

-"لا يا ابني، كل شيء نصيب"

="اتفضل يا عم هاني، دي هدية بسيطة من أولادك الطلبة، وعلى فكرة مديرة المدرسة النهار دا وعدتني إنها هترجعك تاني الشغل مع بداية العام الدراسي الجديد".

واستأذن آدم في الخروج بسرعة قبل أن يسمع أي عبارات للشكر أو المدح.

خرج آدم إلى الشارع وهو يقول:

="الحمد لله، يا رب اغفر لي وسامحني".

ورن هاتفه المحمول فوجد أمه:

="الو، ازيك يا أمي، عاملة ايه؟؟؟"

فترد عليه أمه بصوت مليء بالفرحة:

-"آدم يا حبيبي، رغدة اتحسنت وفاقت من الغيبوبة"

فيرد آدم بكل اتزان وثقة في الله:

="أنا متأكد إنها هترجع أحسن من الأول!"

-عاد آدم إلى المنزل، توضأ وصلى وقرأ جزءًا من القرآن، اليوم هو الويك إيند، فاتصل آدم بالشلة وطلب منهم التجمع في النادي، ففرح أعضاء الشلة، لأن أيام الأنس والسهرات ستعود:

"أيوا كده يا مايسترو، هنرجع تاني زي الأول؟؟"

"والله زمان يا مايسترو".

فيرد آدم: "ربنا يسهل".

يجلس آدم مع أعضاء الشلة ويقول لهم:

="لازم نتغير، ايه فايدة وجودنا في المجتمع؟ مصر عمرها ما هتتقدم طول ما احنا كده، ومصيرنا كلنا هيبقى زي طارق، وإن اختلفت النهايات، الحياة جميلة، بس الآخرة أحسن"

-"ايه الكلام الكبير دا يا مايسترو؟؟؟"

فيرد آدم:

"أنا فعلًا نفسي أبقى مايسترو في الخير، وعايز أغير حياتي القديمة، وأنا مجمعكم هنا النهار دا عشان أمد ليكم إيدي ونفتح صفحة جديدة مع بعض".

تذمر الاصدقاء قليلًا وظهرت عليهم علامات التعجب والاندهاش والاستنكار.

قام آدم وقال لهم:

="اتعرفوا على دين ربنا واعرفوا إن في صلاة اسمها صلاة الحاجة، اللي يصليها لازم مصلحته تتقضي مهما كانت الظروف، انا سمعت كدا في إذاعة القرآن الكريم امبارح، يا ريت نصليها النهار دا كلنا بغرض الهداية، والله المستعان"

-"صلاة؟؟ إذاعة القرآن الكريم؟؟؟ لا دا انت اتغيرت أوي يا آدم"

="هنصليها يا جماعة النهارده؟؟"

نظر الأصدقاء إلى بعضهم بتعجب، فاستعد آدم للرحيل وقال لهم:

="أنا هصليها النهار دا، ويا ريت أشوفكم بكرة جميعًا في صلاة الجمعة في المسجد".

رحل آدم وهو يري في عيون أصدقائه علامات للتعجب والاستفهام، وصل آدم إلى شقته في تمام التاسعة مساءً، فتح إذاعة القرآن الكريم وكان الشيخ يتكلم عن حقوق الجار، فأمسك آدم الهاتف بسرعة واتصل بالأستاذة فاطمة:

="ازيك يا طنط فاطمة عاملة ايه وازي جدو؟؟"

-"والله كويسين يا آدم، بابا ارتاح شوية لما بعد عن العمارة"

="وهيرتاح أكتر يا طنط فاطمة لو رجعتوا تاني"

-"إن شاء الله يا آدم"

="لا يا طنط فاطمة، أنا عايزك ترجعوا بكرة بعد إذنك"

-"حاضر يا آدم، بس مش بالسرعة دي"

="وغلاوة آدم عندك لتيجي بكرة، وعلى فكرة، عشان نروح نزور رغدة كمان، أصل رغدة فاقت"

-"كده؟؟؟ لا دا أنا لازم أرجع بكرة عشان أحتفل بسلامة رغدة"

="ارجعي يا طنط فاطمة على طول وجدو عمره ما هيشتكي تاني"

-"حاضر يا آدم"

="وعد؟؟؟"

-"أوعدك يا آدم بس مش هيكون بكرة، هيكون بعد بكرة، على ما أجهز حاجتي وحاجة بابا"

="تمام، لا إله إلا الله"

-"محمد رسول الله".

فرح آدم بحديثه مع طنط فاطمة، وقطع عهدًا مع نفسه أنه دائمًا سيكون بجوارها ولن ترى منه أي إساءة بعد ذلك.

في صباح الغد استيقظ آدم واستعد للنزول للمسجد وقد كان صلى بالأمس صلاة الحاجة وطلب فيها من الله هداية أصدقائه والثبات على الطريق المستقيم.

اتجه آدم إلى المسجد واتصل بكل أصدقاء الشلة ليحثهم على النزول والصلاة في المسجد ولكن لم يجب أحد على اتصالاته، وعند وصول آدم إلى المسجد فوجئ بالمفاجأة السارة، فلقد وجد جميع

أصدقاء الشلة ومنهم عمر أخو طارق في انتظار آدم، وقد كانوا في الصفوف الأمامية للصلاة.

بعد الانتهاء من صلاة الجمعة وسماع الخطبة التي كانت بعنوان "خير الناس أنفعهم للناس".

أوحت له الخطبة فكرة ممتازة، أن يستغل بدء الإجازة الصيفية في مشاريع صغيرة لخدمة المجتمع بالتعاون مع أصدقاء الشلة والذي يحب أن ينضم إليهم من سكان الحي، وكانت الحملة باسم "خليك زي آدم" وكان هدفها تنظيف شوارع الحي والتخلص من القمامة بشكل صحي وتجديد سلال المهملات ويكتب عليها "خليك زي آدم وماترميش حاجه على الأرض".

فتفاعل أهل الحي بهذه الحملة واشتري بعضهم الأشجار والأزهار وبدأوا في غرزها ووضعها في جميع أرجاء الحي، نجحت الحملة بشكل كبير في أول أيامها وتم تغيير شكل الحي بالكامل في يومين فقط؛ الجمعة والسبت، بعزم وجد الشباب.

وصلت الأستاذة فاطمة في مساء يوم السبت إلى العمارة كما وعدت آدم وفوجئت بأن شكل الحي بأكمله والعمارة قد تغير، فرائحة الزهور تأتي من كل اتجاه والنظافة تعم المكان، ووجدت الكثير من الشباب يلونون الرصيف على قدم وساق، ووجدت لافتات على أعمدة النور يكتب عليها: "خليك زي آدم"، صعدت الأستاذة فاطمة إلى شقتها ومعها والدها، فوجدت على باب الشقة بوكيه ورد ومكتوب عليه في كارت رقيق: "مرحبًا بكِ يا طنط فاطمة" ففرحت الأستاذة فاطمة ووجدت آدم وراءها يقول:

="حمدًا لله على السلامة يا طنط فاطمة"

ويمسك بسرعة يد أبيها ويسنده، ويحمل حقيبتها أيضًا في نفس الوقت، وعندما دخلوا شقة الأستاذة فاطمة، قالت له:

-"ما تتعبش نفسك يا آدم".

فيرد عليها آدم ويقول:

="محتاجة أي حاجة دلوقتي يا طنط فاطمة عشان أشتريها لك من تحت؟؟ ومن بكرة أنا هعتني بجدو وحضرتك في الشغل، وما تقلقيش على الدواء، أنا هركز في المواعيد، وما تحمليش أي هم"

-"الله يخليك يا آدم، ايه التغير الجميل ده؟؟"

فيرد آدم:

="دا اللي كان لازم يحصل من زمان".

وبدأ آدم في صباح اليوم التالي في تنفيذ وعده للأستاذة فاطمة، فقد كان يعتني بوالدها في الساعات الأولى من الصباح، ثم ينزل إلى الشارع ليشرف على أعمال الشباب كلها، وكانت الأفكار الكثيرة تملأ عقل آدم، مثل إطعام الكلاب الضالة، وإنقاذ الحيوانات الأليفة، وعمل قائمة بأسماء المحتاجين لمساعدتهم الأسبوعية، وقرر آدم أن يكون كل ويك إيند مولد فكرة جديدة لخدمة المجتمع، وكان جميع أصدقائه وسكان الحي يساعدونه بالأفكار وبالمواد التي يحتاجها، انشأ آدم حملة "لا للتحرش" وحملة "القراءة للجميع" وحملة "لا تتنمر" وحملة لمساعدة المحتاجين والأيتام، وأنشأ خطة زمنية لتنفيذ كل هذه الحملات.

أصبح يوم آدم يومًا هادفًا، به الكثير والكثير من عمل الخير ومساعدة الناس، حتى أصبح آدم في وقت قصير مثال يحتذى به في كل بيت.

وعاد آدم ذات يوم بعد الانتهاء من كل أعماله الاجتماعية الخيرية ليجد أمه في انتظاره بوجهها البشوش كالعادة، وبعينين لامعتين على خلاف العادة، وقالت له أمه:

-"حمدًا لله على السلامة، انت ما شفتش رغدة من يوم الحادثة، ايه؟؟ ما وحشتكش؟؟؟"

فيقول لها:

="انا بطمن على رغدة منك يا أمي، ولازم لما أشوفها أكون أستحق حبها ليا، وأنا بعمل كل دا علشانها، فإن الحسنات يذهبن السيئات، وأكيد ربنا هيتقبل أعمالي دي وهيمن عليَّ بشفاء رغدة، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟؟". وفجأة يجد رغدة تخرج من غرفتها وتقف أمامه، فلم يصدق آدم نفسه، فجري إليها واحتضنها:

="رغدة حبيبتي، انت رجعتي بالسلامة، أوعدك إني هكون أخ مثالي ليكي"

فترد رغدة:

-"انت كده فعلًا"

فتقول الأم:

-"لقد تطورت حالة رغدة تطورًا سريعًا غير عادي أدهش الأطباء"

فيرد آدم:

="إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملًا"

ويدخل آدم غرفته واثقًا في الله فخورًا بنفسه ويمسك القلم والورقة ويكتب:

عندما أنظر لحياتي أجدها كميدان قتال، مليء بالجرحى والقتلى، من آمالي وطموحاتي وأحلامي، ولكني تعلمت ألّا أحزن على ما فاتني في الحياة، فالماضي قد مضى ولن يعود أبدًا تاركًا في قلبي جرحًا عميقًا، والمستقبل في عالم الغيب لا أدركه اليوم، وكل ما أملكه هو اللحظة التي أعيشها، وهي تستحق في نظري أن أعرف جيدًا لماذا أحيا ولمن أعيش، فالحمد لله الذي أنقذني من شر نفسي وسيئات أعمالي وجحيم تصرفاتي واستطعت بفضل الله أن أعود من الجحيم.

تمت